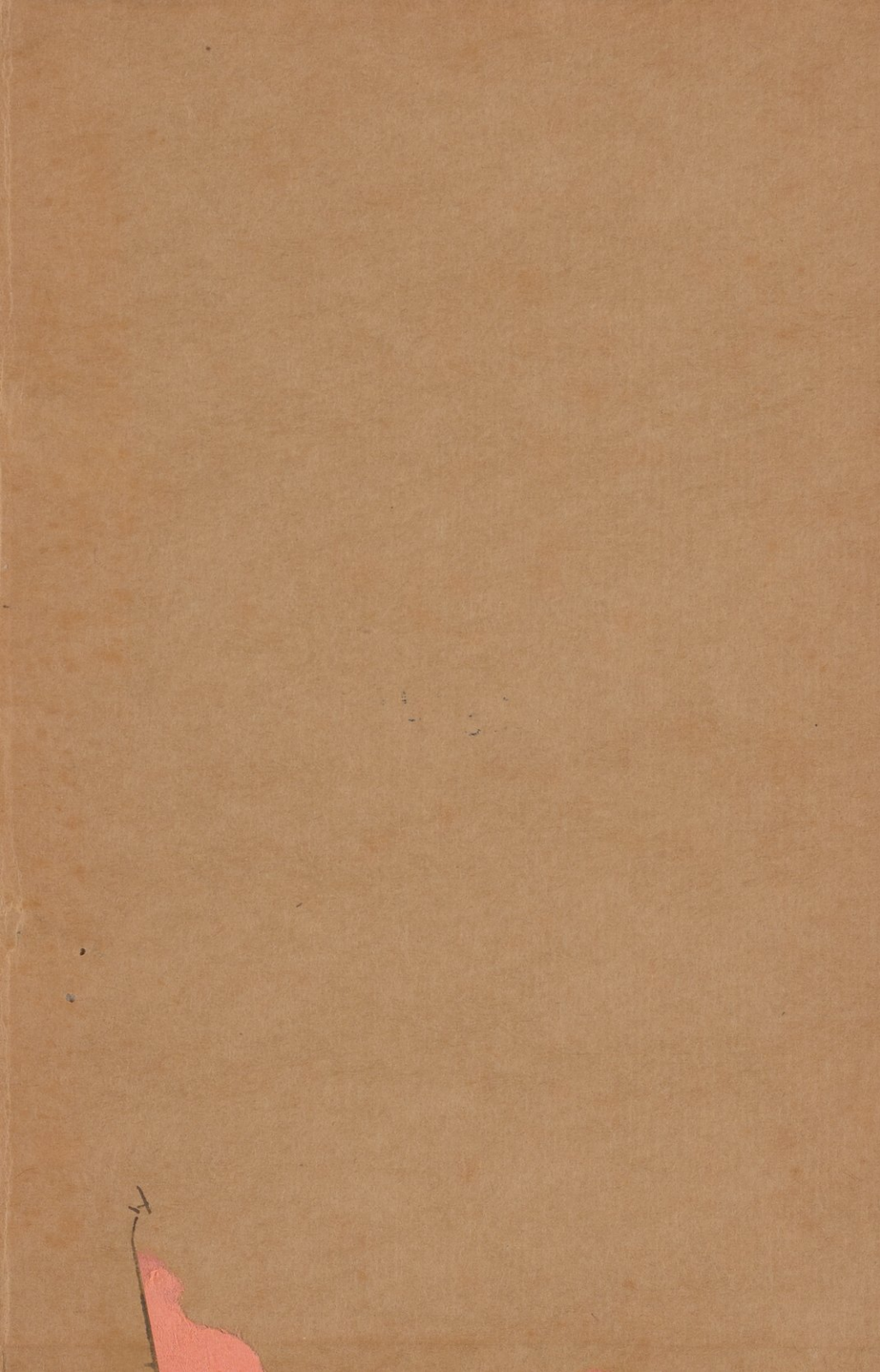


عبد الرحمن صدقي

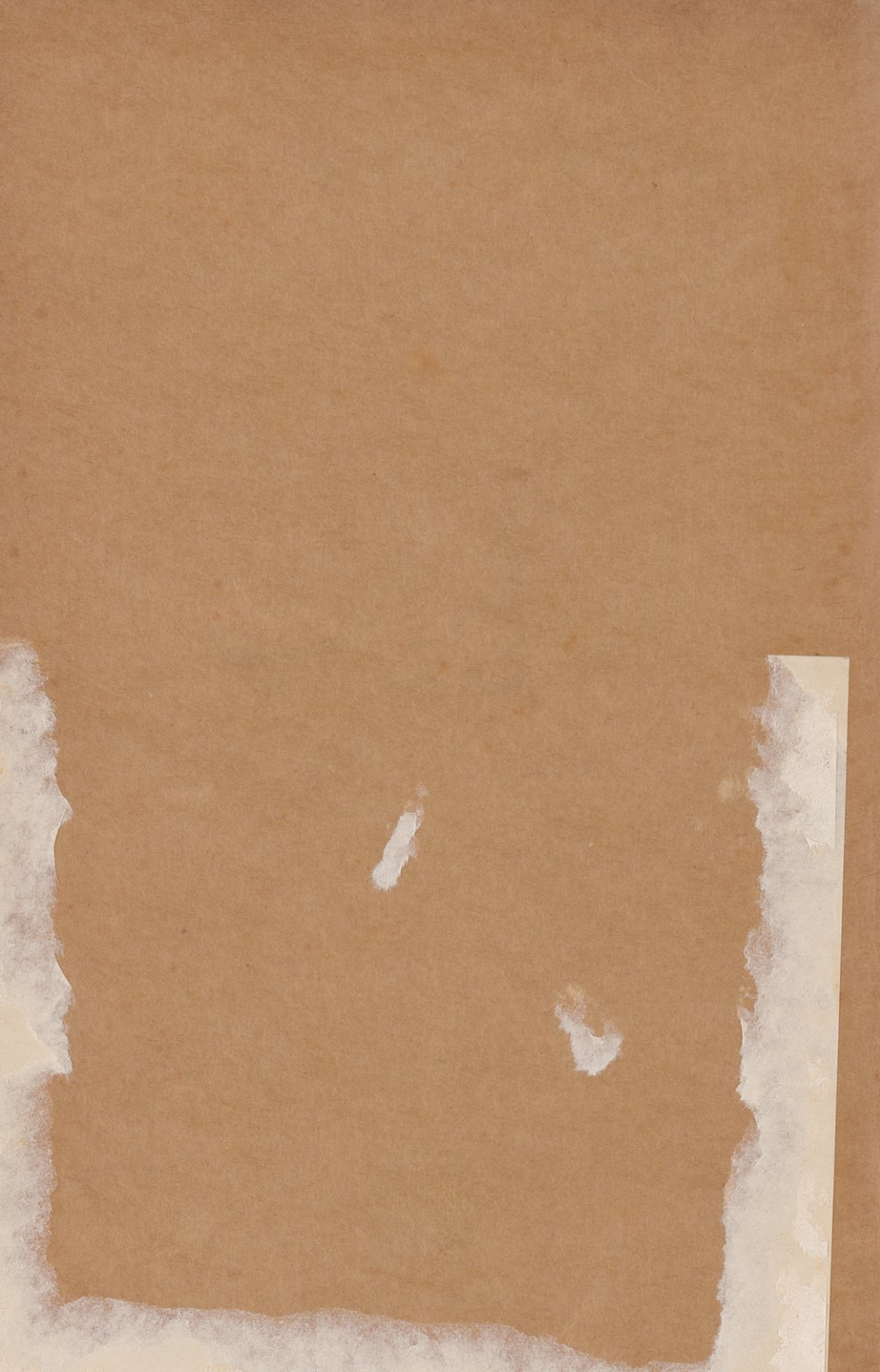


الوان من الحب















808.73  
808.33  
Sa 5695aA  
c. 2

عبد الرحمن صرني

# الوان من الحب

59730



ملف من طبعه ونشره  
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

1946







## مقدمة

مهما يبلغ من صدق القول بأن الحب في أصوله إن هو إلا قوة نزوعية من شهوات الغرائز، فإنه من تحري الصدق في القول أيضاً أن يضاف إلى ذلك أن الحب قد تجاوز في الإنسان طوره البدائي، وأنه لم يعد مجرد حاجة جنسية، بل تعدّاها إلى حال معقدة من العاطفة الوجدانية تنطوي على معان خلقية وروحية. وقد جاء هذا التطور — كما هو معلوم — من أن الإنسان كلما ابتعد عن حالة الفطرة الأولى فرض الاجتماع عليه من النظم والشرائع والآداب ما يجعله في نزاع مع ما ركب في طينته من الطباع، فإذا اختلف في الأمزجة من أثر التفاعل لا ضابط له ولا آخر، وإذا بالنفس الانسانية تتعدد فلا تتشابه اثنتان، بل تتناقض النفس الواحدة حتى لتنكر نفسها في بعض الأحيان.

هذا المعنى هو الذي ينتظم هذه المجموعة من قصص الحب، لأشهر أعلام القصة وأساطينها في الغرب. فكلها عن الحب، ولكن شتان بين حب وحب. والاختلاف هنا في الكم والكيف، وفي الطبيعة والمزاج، وفي المقدمات والمعقبات، وفي أنماط الأفراد ومراتب الجماعات، وفي ظروف الحياة الاجتماعية وخصائص الأجناس البشرية، وما إلى ذلك من الاختلافات الواقعية.



ثم فوق هذا جميعه يأتي الاختلاف الفني في صناعة القصة ، وهو الاختلاف في أسلوب العرض وطريقة التناول بين قاص وقاص . فلسوف يلمس القارئ هنا بعض الفوارق بين القصصى الروسى والأسباني والفرنسى عامة ، ثم الفوارق الخاصة بين القاصين فى الأمة الواحدة .

فالذى يشترك فيه الروس مثلاً هو ذلك الفيض من الإنسانية والعطف والرحمة الخاشعة يتسع لكل حى مهما يكن من الهوان ، كما يتجلى فى قصة « حبيبها » وفى قصة « العضاض » على الخصوص — فضلاً على انفرادهم بتحليل الحالات النفسية الشاذة وأعراض الأعصاب المريضة الملتاثرة . ثم بعد ذلك نجد أفاذاهم مختلفين فيما بينهم فى استقلال كل بطريقته ونظرته إلى الأشياء على نحو خاص به . ويظهر ذلك واضحاً فى تلك الطلاوة التى يصور بها تشيكوف فى قصة « القبلة » مبلغ ما فى حياة الناس — على ودهاء — من العثانة والتفاهة ، على خلاف ما يعتمد إليه أندرييف فى قصة « الصمت » من طريقة التصوير بلمسات عريضة قوية تبرز الأنوار والظلال بأكبر أحجامها وأبلغ تباينها ، محتفظاً مع الهول الذى يرسمه برصانة الفنان وتوازنه .

ثم تأتى القصة الفرنسية القصيرة ، وهى مهما ذهب بها الخيال ، تقوم على الواقع وتغذوها المشاهدة . والفرق واضح مع هذا أيضاً بين بلزاك وما فيه من فحولة قوية ، وبين موبسان وما يضطرب فى نفسه من شاعرية . ونزيد على ذلك أن موبسان — إمام القصة القصيرة غير مدافع — وإن



يكن ينقل الأشياء في ذاتها كما يراها الرائون ، يجلو لنا بأروع الجلاء  
مدلولها الأعم ومعناها المكنون . وليس هذا منه عن سبحات فلسفية  
أو شطحات خيالية ، وإنما الأمر كله أنه يرى الأشياء حق الرؤية . وأما  
أسلوبه الكتابي فسهل متدفق فيه حماسة طبيعية ووقدة حسية

ومن قبل أولئك ، قصة « لوان من الحب » التي استفتحنا بها  
المجموعة ، وهي للكاتب الأسباني إبانيز ، من الآحاد المشهورين الذين  
يفخر بهم القرن العشرون لترفعهم عن التبذل الإباحي مرضاة للأذواق  
العامية . وهو يمتاز بعمق إحساسه بالحياة ، وصدق تحليله لألوان العواطف  
الإنسانية مهما دقت فروقها وخفيت مسارها ، مع وضوح نظرته ودقة  
ملاحظته ، والإحاطة بالموضوع من غير فضول ، ثم إفراغه لهذا كله في قالب  
أنيق المعرض حي الأوصاف

وأخيراً تجيء في الذيل قصة « بلقيس ملكة سبأ » لمترجم المجموعة  
وكاتب هذه الكلمات . وهي محاولته الأولى في فن القصة ، ومن يدرى  
لعلها الأخيرة . وليس في نشرها بين قصص هؤلاء الأعلام دعوى يدعيها ،  
وإنما هي نفسه لم تطاوعه على أن يطويها

وما أظن القارئ — بعد الذي تقدم — في حاجة إلى الإفاضة ،  
وبخاصة ونحن بصدد « ألوان من الحب » . وهو موضوع لا يناسبه فيما  
عدا الشعر من فنون التعبير إلا القصة .

عبد الرحمن مصرقي





## لونان من الحب

« للروائي الاسباني بلاسكو ابانيز »

ظل أهل باريس كلهم ، ممن يرتادون حفلات الشاي الراقصة أو غير الراقصة ، التي يقنع المجتمعون فيها باغتياب الناس والخوض في شؤونهم — كل هؤلاء ظلوا يسمرون أسبوعاً كاملاً ويعيدون ويبدئون في موضوع زواج « موريس دلفور » وريث مصانع دلفور وشركائه ( ويبلغ رأس مالها الملايين ) بالحسنة « أوديت مرساك » ابنة أخى علم من أعلام النواب إن يكن قد خفت اليوم اسمه فانه كان مرشحا مرتين لرياسة الجمهورية .

وليس بالحدث النادر في الحياة الباريسية زواج ملك من ملوك الصناعة بأميرة من أميرات الجمهورية ، بل قلما يكون في هذا مؤونة لحديث نصف ساعة ، إلا أن لهذين العروسين شأننا وأى شأن !

أما هو فكان حلم النساء ، يتراعى لهن مثالا لكل ألوان الأناقة ومظهرها حيا للمعارف البشرية جميعها : كأس الشرف في أرق مسابقات الخيل ، كأس الشرف فيما لا يحصى عديده من مباريات السيف وصيد الحمام ، كأس الشرف في سباق السيارات الأعظم بين باريس ونابولي ، وأمثال ذلك ، حتى أخذت غرفة مكتبه تظهر شيئا فشيئا بمظهر حجرة الأكل

لكثرة ما يشاهد الإنسان فيها من أكواب الشرف مصفوفة على المناضد  
وسائر الأثاث .

ثم إنه إلى هذه الانتصارات في فن الألعاب والرياضة له نصيبٌ من  
جاه رجل العلم ، فهو في الآونة الحاضرة مهتم بالطيران ، يخلق بالطائرة كل  
أسبوع أو ما يقرب من ذلك ، وهو يعقد ما بين حاجبيه وتبين على وجهه  
سمات السابح في الأفكار وغوامض الأسرار إذا ما تكلم متكلم في مجلسه  
عن مسائل الآلات وما يتعلق بها .

وأما هي ، فهي عند صواحبها « أوديت » ، أوديت فريدة زمانها ،  
وهي عند سائر الناس « الأنسة مارساك » ، اسم شهير بارز في كل ما يروى  
عن الأناقة ، وفي كل صحف الأزياء وفي كل الحفلات الافتتاحية . وكان  
أكابر الخياطين من ذوى الفكر والإبداع في شارع « دى لايمه »  
يعتمدون على الأنسة مارساك إبان الحفلات الكبرى في الحياة الباريسية  
في رفع شأن ما تلبسه من مبتدعات قرائحهم المتوقدة . فان قوامها الذي  
لا يضارعه قوام يدع الغواني من الغيرة كاسفات متحسرات . هيفاء ،  
لا يزيد وزنها على الخمسين كيلو إلاقليلا . لها نحرٌ بلغ من الحسن غاية ،  
ترسم في إهابه الرفاف عظمما الترقوة الرشيقتان وكأنهما قاعدة لعمود جيدها  
المستدقّ الرهيف . وتبين في ظهرها العاجي لوحتا كتفها مفصلتين للعيان  
كأنهما جناحان ناجمان . وساقاها طويلتان مستويتان لا يكاد يرى لها  
ريلة ، وهي تعرضهما في طمأنينة غير محاذرة من الغواية والفتنة تحت حافة



ثوبها الحريرى القصير . كذلك سائر ما يكسو بدنّها من اللحم قد روى  
فى توزيعه التقدير ، فلا يربو مقدار اللحم درهما عما يكفى لتلبيس العروق ،  
وتلطيف الحاد من حنايا الأضالع والأوصال . وجملّة القول أنه جسمٌ يَصْدُقُ  
نعتُهُ بـ « الهوائى » ، وإن شئت فهو ذريعة لملء الفراغ فى داخل الثياب  
اجتناباً لمشيها وحدها . . وهذا الكيان الحى الذى بلغ الغاية فى حسن  
السمت والشارة يعلوه وجهٌ جميل أسيل أطاله ذقنٌ مدبب ، وزانته حلقة  
صغيرة قرمزية هى فيها الدقيق البديع ، والتمت فى لوزتان هما عيناها الدعجوان ،  
وتهدّلت على الأذنين لِمَتَانِ كأنهما سالفتا فتى من منازل الثيران الاسبان ،  
وقد صُفِّتْ غداً رهما مجتمعة فى شكل البرج القائم تشتبك فيه الخصل العارية  
بخصل الغانية . إنها هى ربة الجمال العصرى كما قد يتصورها ويعبدها الفنان  
من واضعى رسوم الأزياء فى سبحات خياله المبدع وأحلامه العبقرية .

وفى مستهل عام ١٩١٤ نجحت لعبة جديدة وشاع أمرها وقامت قيامتها  
بين العلية والغطاريف من أهل باريس ، ومن أهل العواصم الأوربية  
والأمريكية التى تأتم بها وتقوم منها بمشاة الضواحي والأرباض . فكان  
أهل الأناقة الغطاريف يهزون أردافهم ليرقصوا رقصة « التانجو » . وفى  
طليعة هذه الخليقة التى ترقص التانجو كان موريس وكانت أوديت .

أما هو فقد اتصل سرّاً بأستاذ للرقص من أبناء الأرجنتين ، وآلى على  
نفسه أن لا ترى عيناه النجلاوان أنوار المدينة الساهرة إلا وقد حذق هذا



العلم الجديد حذقه غيره من العلوم . وفي ذات ليلة من الليالى الزاهرة أقبل  
موريس ليجنى إعجاب القوم ، وهو فى حلبة الرقص تحت المصابيح الكهر بائية  
فى فندق من فنادق الشانزيليزيه ، يحرك قدميه فى حذاءهما اللامع العالى  
الكعب ، ويهزّ قوامه المهضوم المحبوك فى سترته المحكمة ، وينغض برأسه  
الجميل ، وشعره الجعد مرسل إلى الوراء كتلةً وضيئةً كظلاء اللكّ لامعة .  
وأما هى فقد أثارت مثل هذا الإعجاب فى ناحية أخرى من المرقص .  
وكما يحس الكوكبان اقترابهما ويتجاذبان ، كذلك كان موريس وأوديت  
يهفو كل منهما نحو الآخر ويتهافت عليه ، يحدوهما باعث لا يقاوم من  
اثتلاف فى الطباع وامتزاج فى الشعور حتى لا شىء يفرق بينهما .

فهما منذ ذلك الحين يرقصان وكلُّ منهما إنما يرقص للآخر . ولقد  
أصبحا لا يلتقيان الانسجام المنشود بين ذراعى الغير . وكانا إذا تراقصا لم  
يهتكا بكلمة واحدة حجاب الصمت المحفوف بالأسرار فى الرقص المقدس ،  
بل كانت قوة روحهما جمعاء منصرفةً فى جد وتفكير إلى حركة أقدامهما  
وإلى تثني أعطافهما فى اهتزازات موزونة متوافقة ، وهما أشد ما يكونان  
شعوراً بأن حرمة رقصهما أبد الدهر رهينةٌ بأن يبقيا مدى الحياة شريكين .

وهكذا نما الحب بينهما ، وهكذا تم قرانهما . واستيقظت باريس  
بأسرها فى ذات صباح قبل موعد يقظتها المعهودة بساعتين لتشهد حفلة  
القران . وكان يزين الحفلة تشريف عواهل الصناعة أجمعين ، وعددٌ  
لا حصر له من رجالات السياسة أصدقاء عم العروس . وكان معلوماً علم



اليقين ما يجمع شمل العروسين من وشائج صبايةٍ وغرام ، كأطيب وأوثق ما روته الأساطير بين الأنام .

وقد سلك موريس مسلك العاشق الحق ، فودّع الوداع الذى ليس وراءه عودة تُرتجى سائرَ عشيقاته على اختلافهن ، وكلهن من كاهنات الفنون الرفيعة : التمثيل والغناء والرقص . لقد انتهى عهد الجهالات ، وحسبه منذ اليوم امرأته الصبية ودراساته العلمية الجديدة .

أما هى فما برحت تنزع للمغازلة كذى قبل جرياً مع العادة ليس إلا ، ومن غير أن تسمح لأحد بالاجترأ المقتحم . وإنما حسبها منها أن تكون دواعى الإحساس بالخطر تزيد شعورَ زوجها بما صار إليه من السعادة والظفر .

وقد جعلوا مقر سعادتهم فى قصر دلفور ، وهو بناء فخم شيده أول مثر من أصحاب الملايين فى الأسرة على مقربة من حدائق مونسو ، بين قصور أقرانه الممولين . وتطل الوجهة الخلفية من القصر على هذه الحدائق ، وقد اعتكفت الأرملة دلفور فى الطابق الأعلى بما بقى لها من أثاث البذخ القديم ، وتخلت عن بقية الدار لابنها وزوجته ليتسنى للعروس الشابة من غير عائق أن تشبع هواها الزخرفى فى زينة البيت ، فإذا بهذا المنزل العامر من قبل بالأثاث الأرجوانى المذهب والمقاعد الفخمة من طراز نابليون الثالث ، تطفئ عليه نزوات الخيال وألوان المفارقات فى طراز مستحدث من الأثاث ، خليط من البيزنطية والفارسية ، وهو بعدُ ربيب دور الفن فى ميونيخ الألمانية .



وكانت الأم دلفور متشحة دائماً بالسواد ، وهى أبدأ رصينة مفكرة شأن من خبر الدنيا وعرف قيمتها ، وكانت تشهد — دون أن تبدو عليها بادية — ماتأتيه هذه الشابة الوافدة فى الزمن الأخير من ضروب البدوات والبدع : مهرجانات شرقية تقلب الدار الوادعة رأساً على عقب ، حفلات شاي راقصة ، وهى فى ثياب من غلائل الكتان الرقيق شفافة ، ضيقة كالغمد ، موشاة بأزهار كبيرة الحجم بارزة الطرز ، مزومة على عُرْيها وهزالها .

ولما كان ابنها مشغولاً بأوديت يعبدها ، فقد اجتهدت الأم أن تلتمس العذر لزوجته الصغيرة فى جميع أهوائها ونزوات مزاجها : يا للبنية المسكينة ، لقد نشأت من غير أمٍ فعاشت كالغلام طليقة !

## ٢

وقامت الحرب . وكان من بوادر آثارها أن بدت أمارات الرعب فى عيني الغانية الشابة ، سيدة قصر دلفور الجديدة ، فهما متسعتا الحدة مروعتا النظرة . أيمكن مثل هذا البلاء ! وفى الساعة التى يكون الإنسان فيها أشد ما يكون لهواً وانبساطاً .

أما الحماة فقد لاح عليها أنها كبرت ، وأنها قد خرجت من انقباضها عن العالم . وهذه نظرتها تستقر رصينة بطيئة على الأشخاص وعلى الأشياء ، كأنما تتعرف عليها من جديد . وهى فى زمانها قد رأت الشيء الكثير ، وكان أول من بادلت كلمات الحب رجل الصناعة دلفور فى



عام ١٨٧٠ ، أثناء حصار باريس . ثم شهدت وهى عروس صبية مأساة  
حكم اللجنة الجمهورية العاثر فى فترة عمره القصير .

ودعى نجلها للسفر إلى الميدان فى الوقت الذى بدأت امرأته تعجب فيه  
بالرجل الجديد فى حلة الضابط الرسمية ، تنسجم عليه أجمل انسجام ،  
وتضاعف من رشاقتة فى فتوة ورجولية . ولقد أراد أن يلتحق بالطيران ،  
إلا أن الطيران كان فى طور الطفولة فى أول نشوب الحرب ، فبقى فى  
المدفعية تبكيراً فى القيام بالخدمة .

ورغبت أوديت أيضاً فى أن تؤدى شيئاً لبلادها . وكانت صواحبها  
غاديات رائحات فى المستشفيات . فصحت عزيمة بحافز من الأريحية  
على التطوع ممرضة ، لأنها كانت شديدة الإعجاب بالحلة البيضاء ، والبرنس  
الأزرق ، وعصابة الرأس الناصعة . فهذا الرداء البسيط الجديد يلائم جمالها  
كل الملاءمة . وكانت لفرط هيامها بالظهور فى هذا الزى الأخير من الثياب  
تغادر المرضى أحياناً كثيرة للطواف فى سيارتها متنزهة فى غاب بولونيا ،  
رافلة فى الغلالة البيضاء المزدانة بالصليب الأحمر على الأردن والصدر .  
أما الأرملة دلفور فكانت تقضى أيامها ولياليها فى المستشفى من غير أن  
تخلع ثوبها الأسود السرمدى .

على أنه للحرب كما غيرها مباحها ومتعها : فثمة حفلات الشاى  
المقصورة عليهن معشر النساء بمعزل عن محضر الرجال يضايقونهن  
ويرهقونهن بالمجاملات ، وهن فى هذه الحفلات متشحات جميعهن  
بالثياب البيض كأنهن الخادومات فى دور الحمامات ، ومن كل صوب تنعقد



حولهن نظرات الحسد ممن لا يرتدين زيهن . ثم هن يتسلين بحوك ملابس  
من شغل الإبرة للجنود ، مزهوات بما يبدو عليهن من قلة حذق هذه  
الأشغال ، شأنهن في ذلك شأن العقيلات من العلية شَدَوْنَ عن الخادمة  
شيئاً من أشغال المنزل . وفي أثناء ذلك جميعه يأخذن في الحديث :

— زوجى يحارب فى الألزاس . والمسيو دلفور ، فى أى الميادين هو ؟  
وكان المسيو دلفور فى مكان ما فى ناحية البلجيكي ، وكانت امرأته  
الجميلة تقصّ مغامراته وهى تدير من حولها نظرات اعتزازٍ وخيلاء : لقد  
نوّهت به النشرة العسكرية مرتين ! لقد أنعم عليه بوسام ! لقد منح شارة !  
ولكن عدد الأبطال كان كثيراً كوابل المطر . وكانت أوديت تمتعض  
وهى تسمع غيرها من النساء يذكرن عن أزواجهن مثل ما تذكر .

آه ! ألا من سبيلٍ إلى التفوق !

وفى ذات يوم ريع قصر دلفور فى حداثق مونسو بنوبات شديدة من  
الانفعالات العصبية والنحيب ، مصحوبة باصطفاق الأبواب وتبويق  
السيارات ووفود من الأطباء . لقد جرح الملازم دلفور فى الميدان جروحاً  
خطيرة من انفجار قنبلة . وأرادت أوديت أن تسافر على الفور لتسهر إلى  
جانب سرير زوجها . لكن هذا مستحيل ! فاسودت الدنيا فى ناظرها  
وودت لو تموت . ذلك على حين بقيت الأم ناضبة العينين ، تطرف  
بأجفانها ، وتعضّ شفتيها .

ولما أن عادت أوديت إلى الظهور فى المجتمعات الخاصة داخلها شئ  
من الرضى ، فليس اليوم بين صواحبها من تجرؤ على مطاولتها والاعتياس



بها . لقد جُرح موريس ، وجرحه خطير ، والكل مشفقون على ما صار إليه هذا الزوج الفتان الذى ابتلته الحرب هذا البلاء الشديد .

وهوَن هذا الإعجابُ العام على أوديت جزعها ، فجعلت تألف شيئاً فشيئاً فكرة هذه الجروح الغامضة . أية جروح هى يا ترى ؟ تخيلت زوجها أعرج يظلع ، فى إحدى يديه عصاً ويده الأخرى تعتمد على ذراعها . ما أملحهما زوجين ! إن المستقبل ما فتىء يدخر لهما ساعات هناءٍ طويلة . سوف ترعاه وتحبوه السعادة بحنان الأم الرؤوم ومناغة الحبيبة .

وفى أصيل ذات يوم فى شارع رويال ، وقع بصرها على ملازم من الرتبة الثانية ، وهو جدٌ يافع يكاد يكون غلاماً ، يسير إلى جنب خطيبته ، وأحد كمن سترته متهدلٌ خاو . موريس هو الآخر فقد ذراعه ، هى موقنة بذلك . وهذا هو السبب فى أن خطاباته المكتوبة على عجل ، الناطقة بسرورٍ موجه ، هى دائماً إملاءً وليست بخط يده . ولكن ماذا يهم ؟ ستكون سندَ زوجها ، ستنوب ذراعها عن ذراعه المفقودة . إنما أشوق ما يشوقها رؤيةٌ طلعتة ، والتطلع إلى خيالها فى صفاء عينيه ، والتلى بنظرته الحلوة المداعبة الساخرة فى لطف . آه ! ما أشد حبها إياه .

وكان صواحبها يتلقينها دائماً مرددات نفس السؤال : « كيف حال الجريح ؟ » وهى تجيب راسخة اليقين : « فى تحسن مطرد ، وهو قادم قريباً إلى باريس . »

وتعاقبت الأيام والشهور . ووردت الخطابات تلو الخطابات ، وكلها مكتوبة بغير خطه ، إلا أنها إملاؤه . فقلقت الأم ، واستفهمت من



أصدقاء الأسرة الأقدمين ، وهم قوم من ذوى الرجاجة والرصانة فلا ريب يكاثمونها بعض الخبر :

— إن جروحه بليغة ، ولكن لا خطر عليه . تشجعي ! المهم هو أن يعيش .  
وفى ذات صباح هبت أوديت من فراشها ، وقد أيقظتها بغتةً من نومها حركة اضطراب غير عادية فى القصر . فأزاحت ستار إحدى النوافذ ، فوقع بصرها فى خارج الباب الحديدى على سيارة مقفلة عليها شارات الصليب الأحمر ، ثم تبينت بصعوبة من خلال طنف الزجاج الممدود فوق الدرج الخارجى رهطاً من الناس صاعدين يحملون بين أيديهم شيئاً ملفوفاً يحتاطون له بألف احتياط ، وكأنه قطعة من الأثاث يُخشى عليها التلف ، فقفز قلبها فى صدرها : موريس !!

وأفرغت عليها بعض الثياب ، وانطلقت من غير أن تستكمل هندامها راكضة تنحدر فى السلم ، إلى بهو فى الطابق الأدنى ، وحاول الخدم مذعورين راجفين منعها .

اقتحمت القاعة ، وفى الحال عرفت الرأس الموجه المسنود إلى وسائل الأريكة . هذا هو ، مشوهاً أفضع تشويه ، مخدّد الوجنتين بأخاديد متراكبة متشاكبة من الندوب الزرقاء الكاكية ... ولكنه هو .

لم تبق له غير عين واحدة . أما العين الأخرى فإن موضعها تواريه عصابة سوداء بحجم محجرها الأجوف . ثم سرّحت أوديت طرفها فى صدره المستور تحت قماش سترته الزرقاء ، ستره الضابط القديمة . ولكن . . ولكن هنا تزلزلت المرأة ومادت بها الأرض كمن صدم صدمة



فظيعة مفاجئة — فإذا بها قد صرخت . إن جسمه الجريح ينتهي هنا ،  
بغير ذراعين وبغير ساقين . ما هو إلا جذعٌ أبتر ، بقي بفضل معجزات  
الجراحة ، خرقه ممزقة في نهايتها رأسٌ حى .

وغنم ذلك الفم — الأسود من حريق اللحم — في ضراعة وذلة :  
« أوديت ، أوديت ! » كأنما يلتمس الصفح عما حلَّ به من بلاء .  
ولكن أوديت كانت قد ولت بحفلة تدفع من طريقها الخدم المتجمعين  
أمام الباب ، وانطلقت على وجهها تركض في أطباق المنزل العليا لا تعي  
ما تفعل ، مولولة كأشد ما ولولت امرأة في مأساة إغريقية ، تصطدم  
بالأثاث والحيطان ، وتمزق شعرها المحلول ، وقد جُنَّ جنونها من دهشة  
وفزع واشتمزاز .

وهذا الخلق المشوه المسوخ الخلقة زوجها ! وواجبٌ عليها البقاء إلى  
جانبه طوال حياتها !

ولم يزل يئن في الطابق الأدنى ذلك الصوت الضارع الموجه مسترسلاً :  
« أوديت ، أوديت ! »

واغرورقت بالدموع عيْنُه الوحيدة . الكل يهربون . حتى الخدم  
يتأملونه من بعيد ، ويحاول كل منهم الاختباء وراء زميله وهو متلهف  
على الهرب ، ويشرب مع هذا بعنقه وعلى وجهه سياء مبهمة من تطلع  
الفضول وانقباض النفور .

وكان القوم يتجنبون لمسه ، كأنهم منه بازاء كتلة غروية تعافها  
النفوس ، بازاء أخطبوط بُترت سواعده المتشعبة ، بازاء مادة نخرامية

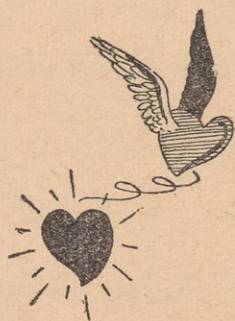
لا قوام لها لفظتها الحرب . هذا صاحب الملايين الذي كان شديد الحب للحياة ، أیظل أبدَ الدهر على هامش الحياة ! لقد أحدثت بليتُهُ فراغاً حوله ، حتى كلبه المحبوب یئن على قيد خطوات منه یقدّم رجلاً ویؤخر أخرى ، كأنما هو نهب دوافع تتداول علیه دراكاً ، من ولاء لسيده وفرعٍ منه .

ولسوف یظل ما عاش على هذا المنوال . . . آه ، حبذا الموت !  
الموت العاجل !

وعلى حين فجأة تنحى جمعُ الخدم . هذا شخصٌ یدخل القاعة . ولمح الجريحُ المشوه رأساً مجللاً بالمشيب یتقدم نحوه ، ثم أحس على وجنتیه الخدودتين بالجراح لمسٍ فمٍ یتمسح بهما ، ویلثم كالواله العصابة المسدلة على مقلته الجوفاء ، وأحس وكف دمعٍ سخین یبلل جیده ، وذراعین تطوقان فی شغف وحركة عصبيةٍ بدنه الناقص التكوين كأنهما تطوقان طفلاً .  
وتصاعدت أنه :

— أماه !

— ولدی ! ولدی !





## نزوة هوى

« للروائي الروسي الكسندر كوبرين »

كانت لجج من الأنوار الساطعة من ثريات ثلاث محلاة بقطع مدلاة من البلور الموشور تفيض على قاعة التمثيل في دار الجامعة . وكان المسرح مزداناً بالأعلام والسعف والأفنان المورقة ، وفي الصدر منه معزف كبير ملتئم الصقال مفتوح أعلاه . وكانت القاعة مزدحمة كل الازدحام كما هو ظاهر ، ومع ذلك فإن الخلق ما برحوا يتدفقون من الأبواب زرافات . وإن المرء ليسدر طرفه وهو ينظر إلى هذه الجموع الجالسة نساء ورجالا ، من رؤوس صلعاء ، وشعور مسترسلة فرعاء ، ومن السترات الرسمية السوداء المذيّلة ، والبذلات العسكرية ، وأثواب السيدات الزاهية ، ومن مراوح فاخرة تتحرك في لطف ووناء في أكف رقيقة مصونة في قفازاتها البيضاء ومن حركات مستوفزة . . . وابتسامات غزلة خنثة لاهية .

وإذا بمغنٍ وسيم ، تظهر عليه سيماء الاعتزاز بالنفس ، وإن شئت فقل الخيلاء ، يرقى إلى المسرح ويخطو إلى مقدمه ، وهو لابس سترة سوداء مذيّلة وفي صدره زهرة كبيرة متفتحة . وتبعه على أثره العازف المصاحب ، غير ملحوظ كأنه الشبح . وخيم السكون على القاعة

غير أن عدداً من الطلاب المتطرفين الذين يحملون الشارات على صدور سترتهم ، وهم لجنة التنظيم كما هو جلي ظاهر ، كانوا في الغرفة الخارجية المتخذة لإيداع المعاطف منهمكين يغطون في قلق وصبر نافذ . فهم على لهف ينتظرون مقدم هنريت ديكروا المغنية الأولى للأوبرا الباريسية ، وقد نزلت على المدينة للغناء في هذا الموسم من الشتاء . ومع أنها لاقت وفد الطلاب لقاءً جميلاً ظاهر الإيناس والبشاشة ، وأكدت لهم أنها تعتبر الغناء في حفلتهم شرفاً لها عظيماً ، فقد حان الدور الذي كان مقرراً ظهورها فيه ، ولم تحضر بعد . أوتراها تخلت عنهم ؟ هذا هو الخاطر المقلق المكتوم الذي كان يدور في أخلاذ أعضاء لجنة الاحتفال وهم في الغرفة الخارجية يكادون من البرد يجمدون . وقد ظلوا يختلفون إلى النافذة يلصقون وجوههم إلى زجاجها ويحدقون في ظلمة هذه الليلة الشاتية .

وطرقت الأسماع قرقرة عجلةٍ تدرج مقتربة ، والتمتع من النافذة مصباحها الكبيران فهرولت اللجنة إلى الباب يتصامدون ويتدافعون . إنها بعينها « ديكروا » الفريدة . وتضوّع في الغرفة المعدة لخلع المعاطف شداً منها عقب . وابتسمت للطلاب ، وأومأت بإشارة معنوية إلى حنجرتها الملفوفة بفراء السمور الثمين . وهى بإشارتها تريد الإبانة عن السبب في تأخرها ، إذ كانت لا تستطيع فتح فمها بالكلام لشدة الزمهرير بالغرفة وخشيتها الإصابة بالبرد .

وكان قد فات دور « ديكروا » من مدة ، وكان الناس الذين أخلقت



شوقهم إليها قد قطعوا الرجاء من انتظارها ، فجاء ظهورها على المسرح مفاجأة سعيدة غمرتهم ، فانطلقت مئات الحناجر الفتية ، وانطلق ضعف هذا العدد من الأكف القوية ، بتحيتها تحية طويلة يصم دويها الآذان ، حتى إنها شعرت — وهي التي ألقت عبادة الجمهور لها — بلذة غالبية متفيزة من هذا الفيض من التمليق والإطراء .

وقفت على المسرح ، وانحنت إلى الأمام انحناء خفيفة ، وتصفحت عيناها السوداوان الضحوكان الصفوف الأولى من المتفرجين . وكانت لابسة ثوباً من الأطلس أبيض لامعاً ، وكان صدرها منوطاً إلى كتفها بشريط دقيق ، وتبدو منه ذراعان بديعتان ، وينم على صدر مشرب ناهد ، وتطول فتحته فيكشف عن نحر بازخ ناصع كأنما هو منحوت من رخام حار .

وهذا التصفيق مرات عدة ، ولكنها كانت في كل مرة لا تسكاد تدنو من المعزف حتى تتجدد موجة الحماسة فتتردها إلى صدر المسرح لرد التحية . وفي آخر الأمر أبدت حركة احتجاج ورجاء ، وابتسمت ابتسامة ساحرة وأقبلت على المعزف . وخفت الهتاف والتصفيق شيئاً فشيئاً ، وأشخصت إليها القاعة كلها أنظارها ، متممةً بها مفتونة . وخيم السكون كأعق ما يكون ، ولكنه سكون الإصغاء الحى . وفي وسطه انبعثت طلأع نبرات من لحن شجى من وضع « سان سانس » .

ووقف « الكساي صاميلوف » وهو طالب طب في الفرقة الثانية على



مقربة من المسرح ، مستنداً إلى عمود من الأعمدة ، يصغى إلى الغناء وقد أطبق جفنيه نصف إطباق . وكان كلفه بالموسيقى عجباً يكاد يكون مرضاً ، فليس يسمعا بأذنه وحدها ، بل يحسها بكل عصب من أعصابه وبكل نسيج من أنسجة كيانه . وكان جرس هذا الصوت الجميل ينفذ إلى أعماق نفسه ويرتد رجفة حلوة تشيع في سائر بدنه ، حتى ليخيل إليه من آونة لأخرى أن الصوت يغنى من داخله هو وفي الصميم من قلبه .

وكان ما يشفعون به كل استعادة من ضجة التهليل والتصفيق تؤذيه ، ويعروه منها شبه ألم جسدى ، فينظر إلى جمهرة السامعين نظرة المرتاع المحتج الراجى .

واستهلت ديكروا لحناً آخر جديداً . فهاد الكساي يسبل جفنيه ، ويستسلم لأمواج هذا الصوت المللع . وتغنى في لهف لو أن هذا الغناء يستمر أبداً .

ولقد اضطروها إلى ترديد الغناء مرات ومرات ، ولم يسمحوا لها بمزايلة المسرح حتى أشارت إلى حنجرتها ، وابتسمت لهم ابتسامتها الحلوة ، وهزت رأسها في احتجاج واعتذار . وأصعد « الكساي صاملوف » زفرة عميقة متقطعة كأنما استيقظ في التو واللحظة من حلم جميل تراءى له في اليقظة .

وعند هبوطه الدرج أحس فجأة بمن يلمس كتفه ، فالتفت فرأى « بيير » طالب الفقه وزميله الأسبق في المدرسة ، وهو نجل مثر مشهور من أصحاب الملايين ، وكان بيير متهللاً تغلب عليه نشوة السعادة ، فطوق خصر



صاميلوف ، وضحه إليه في مودة ، وهمس في أذنه : « إنها رضية . وستكون العربات هنا بعد دقائق معدودات » .

فتساءل صاميلوف : « من التي رضية ؟ »

— « هي . . . . ديكروا . . . . لقد أوصينا بأعداد عشاء في المطعم الأوربي . . إنها رفضت بادئ الأمر . . ولكنها بعد قليل لانت . . . والعصبة ستكون هناك . . ستأتى طبعاً ، أليس كذلك ؟ »  
— « أنا ؟ . . . كلا . لست على الذهاب حريصاً »

ولم يكن صاميلوف من زمرة بيير التي تضم « الشباب الذهبي » من طلاب الجامعة ، وأعنى بهم أنجال كبار الملاك وأصحاب المصارف والتجار . وبيير يعلم هذا حق العلم ولكنه كان مأخوذاً بهزة من التيه والأريحية بحيث أحب أن يشمل بعطفه كل إنسان . فاحتج على رفض صاميلوف :  
— « أوه ! تعال ، دع هذا اللغو ، لا بد من ذهابك . . . ما هي أوجه اعتراضك ؟ »

فتهانف صاميلوف مرتبكاً وقال :

— « أنت ترى . . . أجل ، أنت تعلم . . . إني . . . »

— « أوه . . لا عليك ! . . . نبثنى عن التفاصيل فيما بعد . . . والآن يا زميلي القديم ، أنت معنا »

وفي هذه الأثناء وفدت العربات . . . وكانت الجياد تسهل وتنغض رأسها فتجلجل الأجراس حول أعناقها جلجلةً مفرحة . واستقل الطلاب

العربات حابلهم ونابلهم ، وانبعشت أصواتهم في هواء الليل ذى الصقيع  
فارتدت صريراً ضاحكاً مجهوداً . وجلس صاميلوف إلى جانب بيبر ، وكان  
لا يزال في غمرة تأثره بالموسيقى ، وذهنه مستغرق في سباحات من الأحلام  
عجيبة ، بينما كانت العربات تتسابق في الشوارع الخالية المهجورة . وكان  
عزيف الريح وتوقيع سنابك الخيل على الثلوج ، وتداعى الطلاب وجلجلة  
الأجراس المستمرة ، كل هذه كانت تمتزج في انسجام بديع . . . وثمة  
كانت تمر بصاحبنا لحظات يذهل فيها عن نفسه ، أو ينسى ما يجري له  
وإلى أين يمضون به .

وعلى مائدة العشاء تحلق الطلاب حول المغنية الحسنة . وظلوا ينحون  
على يديها لثماً ، ويزجون إليها عبارات إعجاب جريئة في لغة فرنسية رديئة .  
وكانت . . . وهى بادية النحرفتانة المحاسر . أفعل بألبابهم من الشمبانيا . .  
وقد التمت عيونهم بحرارة التوق والرغبة أجمل التمتع . . . وهى تحاول  
الإجابة على كلامهم في نفس واحد . . . وتكركر ضاحكة وقد استملت  
برأسها على الأريكة المكسوة بالأطلس . . . وتقرع بمروحتها مناديمها  
وخطاب ودّها قرعاً لطيفاً . . .

ولم يكن صاميلوف ممن تعودوا الشراب . . . فكان للقدحين اللذين  
شربهما سورة في رأسه . فانتحى ركناً يحجب عن عينيه نور الثريات  
الساطع ، وجلس يرمق ديكروا بلحاظ مفتونة . وكان يعجب في نفسه من  
تهجّم رفاقه واجترأهم على رفع الكلفة إلى هذا الحد مع المغنية العظيمة . .



وهو في الوقت نفسه حاسدٌ لهم نafsٌ عليهم . . . وإن شئت فقل  
غيران . . .

وصاميلوف ذو خفرٍ بطبعه . وقد زاده استحياءٌ على استحيائه بالطبع  
نشوؤه في أسرةٍ دمثةٍ محتشمةٍ شديدة الحفظ . وكان خلانه يسمونه «الهائم»  
لحيائه . والواقع أن به مشابهة عدة من سذاجة الأطفال وغرارتهم ، وفيه  
طهر نادر في تفكيره وشعوره . . .

وتساءلت ديكرُوا وهي تشير إلى ألكساي : « من هذا السيد هنالك  
في الركن ؟ لكَأنه خائف منا متوجس كالفار . . لعل السيد شاعر . . »  
وصاحت المغنية : « اسمع يا حضرة الشاعر . . تعال ! »

فدنا صاميلوف وهو بادى الارتباك ، ووقف أمام المغنية . . وأحس  
فورة الدم في وجنتيه

— يا لله ! إن شاعركم لوسيمٌ حقاً !

وضحكت ديكرُوا ، وأردفت : « ما أشبهه بأنسة من الأوانس المعلمات في  
مدرسة عليا . . وايم الحق ! إنه ليحمرُّ من الخجل . . وما أجمل ذلك ! »  
وتطلعت تستمتع الاستمتاع كله بالنظر إلى هذا المائل أمامها بقوامه  
المعتدل السمهورى . . . وطلعت الواضحة الموردة وقد خط فيها عذارٌ خفيف . .  
وشعره الذهبي الناعم المتهدل على جبينه . . وعلى حين فجأة أمسكت المغنية  
بيده وأجبرته على الجلوس إلى جانبها على الأريكة . وقالت بلهجتها  
الباريسية :

— لماذا كنت راغباً عن الجلوس إلى ؟ أنت شديد الكبرياء . .  
أنتتظر من امرأة أن تقاتحك ؟

فظل ألكساي أبكم لا يحير جواباً ، وانبرى أحد الطلاب ولم يكن قد  
راه قط في زميرتهم يقول في خبث :

— « سيدتى — إن زميلنا لا يفهم الفرنسية »

فوقعت هذه الكلمة من ألكساي وقع السوط . فالتفت بحدة وحدّق  
في المتكلم نظره وأجاب باقتضاب ولكن ب لهجة فرنسية فصحي — بالفرنسية  
التي كانت في وقت من الأوقات فخر العلمية الروس ، ولم تزل كذلك  
في بعض الأسر — « لا ضرورة مطلقاً يا مسيو لأن تتكلم عني ، وعلى  
الأخص إنني لم أشرف بمعرفتك . »

فهتفت المغنية : « مرحى ! مرحى ! » دون أن تفلت يده « وما اسمك  
يا شاعري ؟ »

وكان صامليوف قد هدأت ثأثرته ، فعاوده الحياء وعلت وجهه حمرة  
الخجل وهو يجيب :

— « ألكساي »

— « ماذا ؟ ماذا ؟ . أُل . »

فأعاد صامليوف الاسم

— « أوه ، هو ما يقابل عندنا ألكسيس ، حسناً يا مسيو ألكسيس .  
وعقاباً لك على ابتعادك سيكون عليك أن تصحبني حتى مسكني . إنني



في حاجة إلى نزهة . . وإلا أصبحت غداً وبي صداع

ووقفت بهما العربية بازاء فندق فاخر في المرتبة الأولى من الفنادق .  
وساعدها على النزول ، وهمّ بالاستئذان منها . فنظرت إليه وعلى محياها حنو  
يسبى القلب ويغوى اللب وقالت له : « ألا ترى مقصورتى الصغيرة ؟ »  
فتمتم منفعل الأعصاب : « إني أكون . . . سعيداً . . . جداً ،  
ولكنني أخشى . . . إن الوقت جدّ متأخر . . . »

فقالت : « تعال . أريد أن يكون عقابي لك تاماً . . . »

وبينما كانت تبدل ثيابها ، تطلع الفتى حوله إلى الغرفة ، فألفاها خلعت  
على هذا المسكن العادى إناقةً رشيقة خليعة لا تحسنها إلا باريسية . وكان  
الجو عاطراً بعبير رقيق مما كان قد آتسه أول ما آتسه حين جلس إلى  
جنبها في العربية

وعادت متوشحة في مفضلة بيضاء فضفاضة مشبوكة بمشابك ذهبية .  
وجلست إلى أريكة شرقية منخفضة وهى تلمن ثنايا جلبابها حول قدميها .  
ودعت الكساي بحركة آمرة إلى الجلوس بجانبها فأطاع :

— « اقترب منى . اقترب . . . اقترب أكثر من ذلك . . هكذا !  
وبعد ، فلنتسار قليلا يا مسميو الكساي . أولاً ، من أين لك هذا التمكن  
من اللغة الفرنسية ؟ إنك تفصح عن نفسك بفصاحة مركيز »

فقال صاميلوف إنه كانت له مربية فرنسية منذ نعومة أظفاره ، وإنهم  
في أسرته يتكلمون أكثر ما يتكلمون بالفرنسية .

ثم جعلت تطرح عليه السؤال في إثر السؤال عن أهله ودراساته  
وأصحابه . . دون أن تدع له الوقت للإجابة على سؤال واحد . وفجأة وفي  
صوت خفيض رخيم سألته :

— « قل لي . . . ألم تحب امرأة قط ؟ . . . »

— « نعم . . . حين كنت في الرابعة عشرة أحببت ابنة عمي . . . »

— « بشرفك »

— « بشرفي »

— « ولم تعلق بامرأة قط . . . أية علاقة . . . ؟ »

فأدرك المعنى . وعبثت أصابعه بهذب غطاء المائدة . وقال همساً :

— « كلا . أبداً »

— « ألا تحبني ؟ » قالت ذلك بنفس الهمسة الخافتة ، ومالت عليه

حتى أحس بحرارة وجنتيها . ثم هتفت به في احتجاج عابث : « انظر

حين تخاطب إلى وجه من يخاطبك » وأمسكت برأسه بين راحتيها

وجعلته ينظر في عينيها . . . لقد راعته وقدة نظرتها في أول الأمر . . . ثم

أشجته . . . وأخيراً أذكت فيه مثل وقدها . . . فمال عليها . . . وكانت

شفتها مخضلتين ملتببتين .

\*\*\*

— « هل مدام ديكروا هنا ؟ »

— « لا »



فأعاد الشاب السؤال : « هل أنت متأكد ؟ ربما تكون قد عادت  
في هذه الأثناء »

فقال الحاجب البدين المحشور في زيه الرسمى ، ذو الوجه المحقن المنتفخ  
الناعس ، وهو يحك ظهره :

— « ما ذا تعنى ؟ هل أنا متأكد !! إنه شأنى أنا أن أعرف إذا  
كانت هنا أم لا . ولماذا أنت على حرّ الجمر اهتماماً بها ؟ لقد سعت إلى  
هنا طوال هذين الأسبوعين ملحفاً تعنتنى بالسؤال عنها ... وما دمتُ  
أقول لك إنها ليست موجودة ، ليست موجودة ، فذلك يفضّ الموضوع ...  
هى لا تريد رؤيتك ... أفأهم أنت ؟ ... هو ذاك الأمر كله ... »  
الأمر كله ! لقد أحس الفتى بقلبه يجبُ وجيهاً موجعاً ، ويحزّ فيه حنين  
مولّةٍ بغير جدوى .. إنه يضطرم غيضاً . لماذا صنعت به هذا ؟ ...







## مبارزة

« للروائي الروسي نيقولاى ليسكوف »

كان ذلك فى بكرة الصبح .

و« فلاديمير كلادينوف » فتى وسيم ، مديد القامة ، فى الثانية والعشرين من عمره ، كالغلمان مظهرأ ، له وجه مليح وشعر وافر أشقر ، يرتدى حلة الضباط ، وينتعل نعال الركوب الطويلة ، وكان واقفاً فى مرج معشوشب كساه متساقط الجليد ، وهو شاخص إلى ضابط آخر . وذلك الآخر رجل أسبل الشاربين ، بأثن الطول ، محمر الوجه ، وكان مواجهأ له على مسافة ثلاثين قدماً ، وهو يرفع على مهل يده حاملةً فى قبضتها مسدساً إلى فلاديمير . وكان فلاديمير واضعأ ذراعيه متشابكتين على صدره ، حاملاً كذلك فى إحدى كفيه مسدساً ، وهو ينتظر — انتظار من لا يبالى — طلقة النار يطلقها عليه خصمه . وكان وجهه الناضر الصبيح ، وإن غشيته مسحةً من شحوب ، ترسم الشجاعة فيه ويعلوه ابتسام المستخف . وكان موقفه المستهدف ، وما يبدو على غريمه من تصميم مبرم لارحمة فيه ، وذلك الانتباه الشديد من جانب الشهود الواقفين صفأ واحداً لاحس لهم ولا حراك ، كل هذه مجتمعة جعلت اللحظة مروعة بالغة

الروع ، مستغلقة غامضة الكنه ، رهيبة فاجعة الوقع . إنها قضية شرفٍ  
يجب هنا القضاء فيها . والجميع بجلالها شاعرون . وكانت اللحظة تزيد  
هولاً بمقدار بعدهم عن إدراك ما هم صانعون .

وانطلقت رصاصة . وسرت في فرائض الجميع رعدة . هذا فلاديمير  
يرخى ذراعيه ، ويثنى ركبتيه ، ويخر في مكانه . فهو على الثلج منطرح ،  
وقد نفذت الرصاصة في رأسه . إنه مستلقي ، وذراعه متباعدتان ، وشعره  
ووجهه ومتوسّد الثلج تحت رأسه كلها مضرجة بالدم . وهرول إليه الشهود  
فاحتملوه . وفحصه الطبيب فقرر وفاته . لقد انحلت مشكلة الشرف  
وانقضّ أمرها . ولم يبق إلا إبلاغ الخبر إلى الفرقة التي يتبعها الضابط ،  
وإبلاغ النعي بقدر ما يستطيع من التلطف والتحرز إلى الأم التي  
أصبحت من بعده في الدنيا مفردة وحيدة . فإن الفتى القليل وحيدها . وهي  
لم تخطر لأحد في بال قبل المبارزة ، أما الآن فالكل يفكرون فيها  
ويطيلون التفكير . فالكل يعرفونها ويحبونها ، ويدركون أنه لا بد  
من التقديم لهذا النبأ الفظيع عندها والتمهيد له قبل إلقائه والتدرج في  
مساقه . وفي النهاية وقع الاختيار على « إيفان جوليو بنكو » بوصف  
أنه أصلحهم جميعاً لتبليغ الخبر للأم وتهوين الخطب جهد المستطاع .



كانت « بيلاجيا بتروفنا » قد استيقظت ساعتمئذ من نومها . وكانت  
تجهز لنفسها شاي الصباح ، حين دخل إلى غرفتها « إيفان جوليو بنكو »  
مكتئباً مرتبكاً .



وهبت السيدة العجوز لملاقاة ضيفها قائلة : « لقد جئت في الأوان  
والشاي مجهز يا إيفان ؟ » ثم أردفت : « إنك قادم لا محالة لترى فلاديمير ؟ »  
فغمغم جوليو بنكو مجفلا : « لا . . . إنما كنت ماراً . . . »

— « أنت لا بد عاذره ، إنه لا يزال نائماً . لقد قضى سحابة الليلة الماضية  
يذرع غرفته جيئةً وذهاباً . وقد أوصيت الخادمة ألا توقظه ، فان اليوم  
عطلة العيد . ولكن لعلك آت في مهمة مستعجلة ؟ »

— « كلا ، وإنما عرجت عليكم في ممروري لحظة . . . »

— « إن شئت رؤيته أمرت بإيقاظه »

— « كلا ، كلا ، لا تكلفي نفسك »

ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد استقر في وهما أنه قادم ليرى ابنها  
في أمر من الأمور . فخرجت وهي تغمغم فيما بينها وبين نفسها  
وجعل جوليو بنكو يذهب ويجيء مضطرباً ، ويقلب كفيه ، وهو  
لا يدري كيف يبلغها الخبر الفظيع . لقد أزفت اللحظة الحاسمة ، ولكنه  
لم يعد مالكا لنفسه بل ملكه الروع ، فهو يلعن الحظ الذي ورطه شر  
مورط في الأمر كله

ولم تلبث بيلاجيا بتروفنا أن عادت واستهلت تقول وهي تدخل  
الغرفة مخاطبة زائرها ، سليمة السريرة طيبة النحيظة :

— « وبعد ! فكيف للمرء أن يثق فيكم معشر الشبان ؟ كنت كما  
رأيتني أحاذر أن أسمع للأقداح وأطباقيها أدنى حس ، وألتمس الأعذار  
لابني في إطالته الرقاد ، وأستسمحك في عدم إيقاظه ، فإذاهو قد خرج منذ

برهة طويلة ولم يخلف أثراً ولا ترك خبراً ! ولكن ، لم لا تجلس وتشرب قدحا من الشاي ؟ لقد أهملتنا شر الإهمال في هذه الأيام الأخيرة »

وابتسمت كأنما تبتسم عن سرور مخامر ، واسترسلت بصوت خافت :  
- « كانت الأخبار كثيرة عندنا في تلك الآونة ، وما أحسب أن فلاديمير استطاع كتمانها . ولا بد أنه أفضى بها إليك بحذافيرها كاملة حتى يومنا هذا . إن ابني مستقيم الطبع مفتوح القلب . والليلة البارحة دارت بخلدی الظنون مع ما بها من إثم ! فقد قلت في نفسي إذا كان فلاديمير يذرع الغرفة طيلة ليلته فمعناه أنه يفكر في « لينوتشكا » صباً بها ، مشوقاً إليها . وإنه لمن مألوف عاداته ودينه إذا ذرع الغرفة الليل طوله أن يمضي لا محالة في الغداة . آه يا إيفان ، لست أتمنى شيئاً على الله إلا أن يرزقني هذه الفرحة من لدنه يقرّ بها عيني في هرمي وخاتمة أيامي . وماذا تطلبه امرأة عجوز أكثر من هذا ؟ ليس لي غيرها أمنية وبشرى . وإنه ليخيل إلي أن ليس ثمة سؤال أرتجيه من الله بعد إذ يتزوج فلاديمير ولينوتشكا . إن في ذلك كل الغبطة لي ، والسعادة التي ما بعدها سعادة . مالي سوى فلاديمير من حاجة وليس شيء أحب إليّ من هناعته »

وكان تأثر السيدة العجوز شديداً ، فجعلت تكفكف الدمع تغرغرت به عيناها ، واسترسلت تتحدث إليه : « أوتذكر ؟ لم تكن الأمور في البداية جارية على أحسن حال ، سواء فيما بينهما أو فيما يتعلق بالمال . فانكم معشر الشبان الضباط غير مسموح لكم حتى بالزواج من غير عتاد من المال المرصود . حسن ، لقد تم الآن إعداد كل شيء : حصلت على الخمسة الآلاف روبية



اللازمة لفلاديمير . وفي الإمكان ذهابهما إلى المحراب لعقد الزواج غداً  
غد . أجل ، ولقد كتبتُ لى ليونتشكا خطاباً ما أعذبه وألففه . إن قلبى  
لجذلان مبتهج . »

وأخرجت بيلاجيا بتروفا - وهى مسترسلة فى كلامها - خطاباً  
من جيبها ، وأظهرته لجوليو بنكوشم أعادته : « إنها لفتاة محببة ! وناهيك  
بطيبة نفسها ! »

وجلس إيفان جوليو بنكو ينصت إلى كلامها وهو على مثل الجمر . وقد  
أراد أن يقطع عليها هذا الفيض من الأحاديث ، ويقول لها إن كل شىء  
قد انتهى ، وإن فلاديمير ابنها مات وأصبح فى خبر كان ، وبعد ساعة  
واحدة لن يبقى لها شىء من هذه الآمال الزاهية البهيجة الألوان . ولكنه  
لم يفعل وجعل ينصت إليها ملتزماً الصمت ، ونظر إلى وجهها الطيب  
اللطيف فأخذ منه الإشفاق عليها مأخذه ، وإذا حركة تشنج تأخذ بكظمه  
وأخيراً سألته السيدة العجوز : « ولكن ، مالى أراك اليوم متجهماً ؟  
ما باللك ، إن وجهك يبدو مكفهراً كامداً كالليل ! »

وود إيفان لو يقول : « نعم ! وسيكون وجهك كذلك حين أخبرك  
الخبر ! » ولكنه لم يخبرها حرفاً ، واستعاض من ذلك بأن أشاح بوجهه ،  
وجعل يقتل شاربيه .

ولم تلاحظ بيلاجيا بتروفا شيئاً ، واستطردت وهى فى أفكارها مستغرقة :  
« إن لك عندى تحية ، لقد كتبت لى ليونتشكا فيما كتبتة لى توصينى  
بأن أبلغ تحياتها إلى إيفان ، وأن أرجوه الذهاب مع فلاديمير لزيارتها .

فأنت ترى بنفسك يا إيفان مودتها لك ! وايم الله لا، يظهر أننى لا أستطيع الاستئثار بهذا وحدى . لا بد من اطلاعك على الخطاب ، ولتتظرن أنت لنفسك مبلغ ما فيه من محبة وعذوبة »

وعاودت بيلاجيا بتروفنا البحث عن حزمة الخطابات فى جيبها ، وسحبت منها طرساً رقيق الورق مقرط الكتابة ، ونشرته أمام إيفان ، وحاول إيفان أن يدفع عنه القرطاس الممدود ، ولكن بيلاجيا بتروفنا كانت قد أنشأت تقرأه :

( عزيزتى بيلاجيا بتروفنا — متى يئين الأوان الذى أخاطبك فيه غير هذا الخطاب ، فادعوك بيا أمى العزيزة الحبيبة ! إننى أرقب ذلك اليوم متلهفة ، وإن أملى لعظيم بقرب حلوله حتى لقد آليت ألا أدعوك منذ الآن باسم غير — يا أمى ! )

ورفعت بيلاجيا بتروفنا رأسها ، وتوقفت عن التلاوة ، ونظرت إلى جوليو بنكو بعينين تملؤهما العبرات

وقالت : « أترى يا إيفان ! » ولكنها رأت جوليو بنكو يعرض شاربيه بناجذيه ، ورأت عينيه هو أيضاً مغرورقتين . فقامت وأقبلت عليه ، ووضعت يدها المرتعشة على شعره ، وقبّلته فى هيئة وأناة فوق جبينه ، هامسة من شدة التأثر : « شكراً يا إيفان ! لقد كنت دائماً أعتقد أنك وفلاديمير أقرب إلى الأخوين الشقيقتين منكما إلى مجرد صديقين . لا تؤاخذانى . إننى سعيدة أيما سعادة . والحمد لله سبحانه ! »

وفاضت الدموع على خديها . واشتد بإيفان جوليو بنكو اضطرابه



وارتباكاه ، ولم يسعه إلا أن يأخذ بين راحتيه يدها الباردة المعروقة ويكب عليها تقبيلًا .

وكان محتنقًا بالعبرات فلم يستطع أن يلفظ حرفًا . ولكن هذه الفورة من الحب الأموى أشعرته بالتبكي الشديد ، حتى لقد أثر لوانه كان هو الصريع على الساحة وقد نفذت الرصاصة في دماغه ، فذلك أهون عليه من سماع عبارات الحمد له والتنويه بصداقته وخالص أخوته تجرى على لسان هذه المرأة ، وهى بعد هنية قصيرة سيتضح لها حقيقة الواقع وجليه الأمر . ماذا يكون رأيها فيه وقتئذ ؟ ألم يقف — وهو الصديق وفى حكم الشقيق — ساكنًا جامدًا حين كان المسدس مسددًا إلى فلاديمير ؟ أليس هذا الشقيق نفسه هو الذى قاس المسافة بين الغريمين ، وهو الذى حشا المسدسين ؟ كل هذا صنعه بنفسه ، وقد صنعه وهو يعى ما يصنع ، وهاك الصديق بل الشقيق يجلس الآن صامتًا ولا يتقدم حتى هنا للقيام بواجبه . إنه جزع مرتعب . يحتقر فى هذه اللحظة نفسه ولا يستطيع مع ذلك مغالبتها ليقول ولو كلمة واحدة ، وإن إحساسًا غريبًا بالتناقض يخرج صدره ويزهق روحه ، فهو فى كرب واختناق . والوقت يمر مسرعًا . إنه يعلم بمروره ، وكلما زاد به علمًا وهت عزيمة ولم يقو على حرمان بيلاجيا بتروفنا مما بقى لها من لحظات سعيدة أخيرة . فماذا هو قائل لها ؟ وكيف يقدم الخبر ويهيئها لسماعه ؟ حار إيفان جوليو بنكوفى أمره وأسقط فى يده .

ولقد انفسح له الوقت هنا ليلعن فى سره جميع المبارزات وجميع المشاحنات وكل ضرب من ضروب البطولة وسائر ما يسمونه فضايا الشرف

على اختلاف ألوانها . وأخيراً هبّ من مجلسه وهو موطن النفس على التصريح أو الفرار . وأقبل ، فتناول — معجلاً ومن غير كلام — يد « بيلاجيا بتروفنا » وانحنى يلثمها ، فأخفى بذلك وجهه عنها ، وإذا سيل من الدمع السخين المدرار ينهمر فوقها . ثم انتزع نفسه وانطلق لا يلوى على شيء ، وأخذ عند الباب معطفه الكثيف وخرج من البيت دون أن يقول كلمة .

وتطلعت بيلاجيا بتروفنا وراءه مندهشة ، وقالت في نفسها : « لا شك أنه أيضاً عاشق ، مسكين ، كان الله في عونته . إيه ! إنها لوعة الصبا تلوعهم ومن بعدها السعادة »

ثم سرعان ما نسيت ، وغاب أمره عن بالها ، واستغرقت العجوز في أحلامها بالسعادة تتراءى لها محققة كاملة !





## حبیبہ

« للروائی الروسی مکسیم جورکی »

روی لی بعض معارفی هذه الواقعة :

اتفق لی وأنا طالب فی موسکو أن عشت فی جوار سيدة من اللواتی فی سمعتهن موضعٌ للتهمة ومثار للريبة . وهی بولونية ویدعوها تریزا . وكانت سمراء قوية البنية ، إلى طول فی القامة ، كثة الحاجبین فاحتهما ، عریضة الوجه ، غیر مصقولة الملامح كأنها منحوتة بالفأس . وكانت لمحّة الحيوانية فی عینيها السوداوين ، ونبرةٌ صوتها الغلیظ العمیق ، ومشيتها التي تحکی مشية الحودی ؛ وصلابة عضلها الجذيرة بامرأة من بألعات السمک -- كانت هذه جميعاً تملأ قلبي لها استکراهاً ومنها نفوراً .

وكنت أسکن الطابق الأعلى وغرفتها تجاه غرفتی . وكنت لا أترك بابی قط مفتوحاً إذا علمت بوجودها ، وهو أمر نادر الوقوع . ولقد ألقاها مصادفةً فی السلم أو فی الفناء فتبتسم لی ابتسامة تبدو فی نظری ماكرة مستخفة . كما أنني بین آونة وأخرى كنت أراها سكری ، شعثاء الشعر ، عشواء العینین ، وقد بدا ناجذاها فی تهاanf مستهتر فظیع . وفي أمثال هذه الحال كانت تخاطبني :

« كيف حالك يا حضرة الطالب »

وتزيدني ضحكته السخيفة مقتاً لها على مقت . ولم يكن أحبّ إلى من الانتقال من المسكن تجنباً لهذا اللقاء وهذه التحية ، لولا أن غرفتي الصغيرة لطيفة تشرف نافذتها على منظر واسع شاسع ، والطريق تحتها يشمل السكون — فأنا لهذا متحمل صابر . وفي صبيحة ذات يوم كنت مستلقياً على فراشي ألتبس لنفسى عذراً عن الذهاب إلى الدرس . وإذا بالباب يفتح ، وصوت تريزا السمجة المرذولة — صوتها الغليظ العميق يرنّ على عتبة بابي :

« لا بأس عليك ، يا حضرة الطالب »

فبادرتها : « ماذا تريدن » . وإذا وجهها يعلوه اضطرابٌ وتبدو عليه ضراعة . . . وما عهدتُ لها قط مثل هذا الوجه :

— سيدى ، إني قصدت إليك في مكرمة . فهل تصنعها لى ؟  
فلبثتُ في موضعي صامتاً . وناجيت نفسي : « يا لطيف !.. تجلد يا بنى »  
فمضت تقول وفي صوتها ضراعة : « أريد أن أبعث بخطاب إلى بلدى . هذا كل ما فى الأمر »

فقلت فى نفسى : « خطفتك الشياطين » . على أنى وثبت من فراشى وجلست إلى منضدتي وتناولت قرطاساً ، وقلت : « تعالى ، اجلسى واملى على »

فتقدمت ، وجلست على المقعد فى رقة ودلال ، ونظرت إلى نظرة المريب



— « حسنًا ، لمن تريد ان الكتابة »

— « إلى بولسلاف كاشبوت ، ببلدة سقيبتز يانا ، في طريق وارسوفيا . »

— « حسنًا ، هاتي ما عندك »

— « عزيزي بولز . . يا قرة العين . . يا حبيبي الوفي . حرسك السيدة

العدراء ! يا من قلبه من الذهب الخالص ، لماذا انقطعت هذا الوقت الطويل

عن الكتابة إلى حمامتك الصغيرة الهاتفة تريزا ؟ »

فكاد يغلبني الضحك « حمامة صغيرة هاتفة » وهي في طولها تنيف

على خمس أقدام ، وقبضة يدها ترن خمس أقات وزيادة ، وأما الوجه منها

فأسحج كأنما الحمامة الصغيرة قد عاشت طوال حياتها في مدخنة ولم تغتسل

في يوم من الأيام

وتماكنت نفسي جاهدًا . ثم سألتها :

— « ومن بولست هذا ؟ »

فراجعتني وكأنما ساءها غلطى في الاسم « بولز يا حضرة الطالب ،

هو بولز فتاى الحب »

— « فتى ! »

— « فيم دهشتك يا سيدى ؟ ألا يصح — وأنا فتاة — أن يكون

لى فتى ؟ »

هى ؟ فتاة ؟ عظيم والله !

وقلت « إيه ، لم لا ؟ كل شىء ممكن . وهل هو فتاك من عهد طويل ؟ »

فتعجبت في نفسي ثم قلت « عظيم ، لنتم خطابك . . »  
(ولا أ كذبك القول . لقد وددت لو كنت مكان بولز ولو كانت هذه  
التي تكاتبه ليست تريزاً بل دونها أيضاً)

وفي الختام قالت تريزاً مع انحناء برأسها تحيةً لى :  
— « أشكرك ياسيدى من صميم قلبى لحسن صنيعك . ولعلى أستطيع  
أن أودى لك خدمة ، أليس كذلك ؟ »

— « كلا ، ولك منى فروض الشكر على كل حال »  
— « سيدى ، قد تحتاج قصصناك أو سراويلك إلى شىء من الإصلاح »  
فأحسستُ أن هذه المائلة أُمحى كالفيل فى زى امرأة قد جعلت وجهى  
يحتقن خجلاً ، ولقد أحببتها فى غير قليل من الحدة إنه ليس بى إلى خدماتها  
أدنى حاجة

فانصرفت

وانقضى أسبوع أو أسبوعان ، وفى ذات مساء كنت جالساً إلى نافذتى  
أصفر وأفكر ، وأنا متضايق برِّمٍ بالحياة ، والجو كدِرٌ عَكِرٌ ولم تكن بى  
رغبة فى الخروج ، فأقبلتُ — من السامة — على نفسى أحللها ، وأذهب  
مذاهب التأمل والنظر ، وذاك أيضاً عمل خامد بليد ، ولكنى لم يكن  
يعنينى أن أصنع غيره ، وإذا الباب يفتح وإذا داخلٌ يدخل ، ثم سمعت  
صوتاً يقول :



— « إيه يا حضرة الطالب، أرجو ألا يكون عندك عمل هام يُعْجلك ؟ »  
هي تريزا إذاً . وَى وَى !

— « كلا . ما الخطب ؟ »

— « كنت أهِمُّ — ياسيدى — أن أسألك أن تكتب لى رسالة أخرى »

— « حسناً جداً ! إلى بولز ، أليس كذلك ؟ »

— « كلا ، هي من بولز هذه المرة »

— « ماذا ؟ »

— « ما أغبانى ! إنها ليست لى يا حضرة الطالب ، أرجوك المَعذرة

إنها لصاحب لى ، لا أعنى صاحباً وإنما أحد معارفى — رجل من معارفى .

إن له حبيبة مثلى تماماً ، اسمها تريزا ، هذه هى المسألة ، فهل لك يا سيدى

أن تكتب خطاباً إلى تريزا هذه »

فرفعتُ بصرى إليها — فإذا وجهها مضطرب وأصابعها مرتجفة ، لقد

غُمَّ على وجه الأمر فى البداية ، ولكننى الآن فطنتُ إلى جليته

فقلت « اسمعى يا سيدتى ، ليس الأمر أمر رسائل بين رجال باسم بولز

ونساء باسم تريزا على الإطلاق ، وإنما كنت تختلقين لى الأكاذيب عمداً ،

فياك أن تتسلى بعد اليوم إلى غرفتى ، فليست بى أدنى رغبة فى أن تتصل

بيننا الأسباب ، أفاهمة أنت ؟ »

فما راعنى إلا هلعٌ غريب يستولى عليها وحيرةٌ تشدُّ بها ، وقد جعلتُ

تنقل قدميها دون أن تنتقلا بها خطوة ، وتغمغم على نحوٍ مضحك تريد أن

تقول شيئاً فلا تستطيع ، وانتظرتُ أرقب ما تنجلي عنه هذه الحال ، فدأتني نظري وهدأتني إحساسى إلى أننى — على ما يظهر — أخطأتُ خطأً كبيراً فى التظنن بأنها تبتغى استدراجى والميل بي عن الطريق القويم ، وصحَّ عندي أن فى الأمر شيئاً خلاف ذلك

واستهلتُ تريزا « يا حضرة الطالب » ولم تزد ، ثم دارت على عقبها فجأة وهى تلوح بذراعيها ، واندفعت إلى الباب وخرجت ، وبقيت فى موضعى متكدر الخاطر ، وأصغيتُ ، فسمعتها تدفع بابها بشدة — ولا شك أن المرأة المسكينة غاضبةٌ أشدَّ الغضب ، فراجعتُ نفسى فى الأمر وقلبت فيه وجوهَ الفكر ، فاجتمع عزمى على أن أذهب إليها فأدعوها إلى المجيء هنا لا أكتب لها ما تشاؤه جميعاً

ودخلتُ إلى مسكنها وتلفت ، لقد كانت جالسة إلى المنضدة ، معتمدة على مرفقيها ، ورأسها بين كفيها ، فقلت لها : « أصغى لى » (والحق أننى إلى اليوم كلما بلغتُ إلى هذا الموقف من حكايتى ما أزال أحس بمبلغ ما كان من خرقى وغفلتى) قلت : « أصغى إلىَّ » فهبتُ من مقعدها ، وأقبلت على ، وقد أبرقت عيناها ، ووضعت راحتيها على كتفى وأنشأت تهمس — أو على الأصح تهمهم بصوتها الأجشِّ العميق :

— « الآن ، ألقِ بالكِ إلىَّ . هذه هى الحال : فليس من رجال باسم بولز على الإطلاق ، ولا نساء أيضاً باسم تريزا ، ولكن ، ماذا بك من ذاك ؟



أَيْشَقُّ عَلَيْكَ أَنْ تَجِرَ الْقَلَمَ عَلَى الْقُرْطَاسِ ؟ ماذا ؟ حتى أنت ! ولما نزل فتى صغير السن غضَّ الالهَاب ! أَجَلْ ، ليس من أحد على الإطلاق ، لا بولز ولا تريزا ، لا يوجد غيرى أنا ، هذى هى واقعة الحال ، فاهنأ الآن ! »  
بغتتنى هذه المقابلة ، ثم لم ألبث أن قلت « لا تؤاخذينى ، فيم هذا كله ؟  
تقولين بولز لا وجود له ؟ »

— « هو ذاك »

— « ولا تريزا أيضاً ؟ »

« ولا تريزا . أنا تريزا »

لم أفتقه من الأمر شيئاً ، وحدجتها بنظري ، أحاول أن أعرف أينما فارق صوابه ، ولكنها عادت إلى المنضدة ، وجعلت تلمس فوقها شيئاً ، ثم أقبلت ثانية على ، وقالت بلهجة المستاء :

— « إذا كانت الكتابة إلى بولز تشق عليك إلى هذا الحد ، فهالك كتابك إليه خذه ، فخيرُك يكتبون لى »

ورفعت نحوها بصرى ، فإذا فى يدها كتابى إلى بولز . أف لها !  
— « اسمعى يا تريزا ! هذا جميعه ما معناه ؟ لماذا تستكتبين الناس له ،

وأنا قد كتبت له خطاباً ولم ترسلية ؟ »

— « أرسله أين ؟ »

— « كيف ، إلى بولز هذا الذى تذكرينه »

— « إنه ليس بأحد »

لم أعقل شيئاً البتة . ولم يبق لى إلا أن أنفث نفثةً عن صدرى ثم  
أمضى . ولكنها انطلقت تبين عن نفسها وتشرح حالها ، فقالت وهى لما تنزل  
مغضبة :

— « ماذا فى الأمر ؟ أقول لك إن هذا الإنسان لا وجود له » وبسطت  
ذراعيها ، كأنها هى نفسها لا تدرى لم لا يكون لها أحد كالذى ذكرت .  
ومضت تقول : « على أننى أردته أن يكون . . . أأست بإنسانة كسائر  
الناس ؟ نعم ، نعم ، إننى أعرف بطبيعة الحال . . . ولكن لاضير على أحد  
إذا أنا كتبتُ إليه حتى أستطيع أن أرى . . . »

— « معذرة ، تكتبين إلى مَنْ ؟ »

— « إلى بولز بطبيعة الحال »

— « ولكنه لا وجود له »

— « أواه ! أواه ! وماذا فى عدم وجوده ؟ هو لا وجود له ، ولكنه  
قد يوجد ! وأنا أكتب إليه فيخيل إلى أنه موجود ، أما تريزا — فهى  
أنا ، وهو يرد على خطاباتى ، فأعيد الكتابة إليه . . . »

أخيراً فهمتُ ، وأحسست من نفسى باللوعة والتعاسة والخجل —  
أو ما أشبه ذلك . فهاهنا بجوارى ، وقاب قوسين أو أدنى منى ، تعيش  
إنسانة ليس لها فى الخلق أجمعين من يحنو عليها ويظهر لها المحبة ، فاختلقت  
هذه الإنسانة لنفسها حبيباً



ومضت تريزا في حديثها : « فانظر الآن ، أنت كتبت لى خطاباً إلى بولز ، فأنا أحمله إلى من يقرءونه لى ، فإذا قرأوه لى أصغيتُ وتصورت أن بولز هناك ، ثم أطلب إليك بعدها أن تكتب رداً من بولز إلى تريزا — أعنى إلى أنا ، فإذا قرىء على هذا الكتاب شعرتُ شعوراً لا يخامره الشك بأن بولز هناك بالفعل ، فتصبح الحياة أنهم جناباً وأندى مساً »

فقلت لنفسى حين سمعتُ ما سمعت « تبّاً لك من أبله ! » ، ومنذ ذلك الحين ، وأنا أكتب لها بانتظام مرتين فى كل أسبوع خطاباً إلى بولز ، ثم رداً من بولز إلى تريزا ، وكنت أجيد فى كتابة الردود خاصة وهى بطبيعة الحال تستمع إليها ، وتنتحب كما لم تنتحب عاشقة ، أو — على الأصح — تجأر بصوتها الأجش العميق . وكانت تجزىنى على إثارة شجوها وتحريك بكائها بالرسائل الحقيقية على لسان بولز الخيالى بما كانت ترتق لى من جواربى وقصانى وسائر ملبسى . وقد حدث بعد أشهر ثلاثة من عهد بداية هذه الواقعة أن زُجّت فى السجن لأمر من الأمور ، ولاشك فى أنها اليوم من سكان القبور

\*\*\*

ونفض محدثى الرماد من سيجارته وتطلّع إلى السماء مفكراً ثم ختم حديثه قائلاً :

« أجل ، أجل ، كلما ذاق الإنسان من الحياة مرّها زاد نهمه إلى

حلوها . أما نحن ، نحن المترملين في أسمال فضائلنا فننظر إلى الآخرين  
من سحابة أثرتنا واكتفائنا بأنفسنا واقتناعنا بأننا المنزهون عن كل  
شائبة ، فلا نفهم من ذلك شيئاً »





## القبلة

« للروائي الروسي أنطون تشيكوف »

في مساء اليوم العشرين من مايو في الساعة الثامنة كانت ست مدفعات من فرقة المدفعية حرف « ن » في طريقها إلى المعسكر فنزلت في بلدة ميستشكي على نية قضاء الليلة .

وكان المهرج على أشده . فبعض الضباط لهم حول المدافع حركةٌ وجلبة ، والآخرين في الساحة الواقعة أمام الكنيسة يتذاكرون مع كبيرهم . وإذا براكبٍ مقبل من وراء الكنيسة على صهوة طَرفٍ من الجياد الأصيلة . واقترب الفرسُ ، كَمَيْت اللون ، مضمرّ البطن ممشوقاً محصوص الذيل ، أجيد عريض اللِّبان ، يخطر في مشيته ، هزِجا يترقّص طوال الوقت ولا تستقر قوائمه كأنما تمس الرمضاء حوافره . ولما بلغ الراكب إلى محاذاة الضباط جذب اللجام ورفع قبعته محمياً وقال في لهجة رسمية :

« الجنرال فون رابك — وداره هنا عن كشب — يتشرف بدعوة

حضرات الضباط للشاي . . »

وهزّ الجواد رأسه ، وترقّص ، ثم تمايل متراجعاً . ورفع الراكب قبعته

مرة أخرى وأدار عنان جواده العجيب ، وغاب وراء الكنيسة .

فتردد على ألسن الضباط وهم يدلّفون متفرّقين إلى المحلة « سحقاً لها  
من دعوة . هذا النعاس يُثقل أجفاننا فيأتينا من يُدعى فون رابك بشايه .  
وبئس الشاي ! »

فإن ضباط المدفّعات الست لا يزال يعلّق بأذهانهم ويتمثّل لعيانهم  
ذكرى دعوة سابقة . فقد اتفق في أثناء بعض المناورات الأخيرة أن دُعوا  
مع زملاء لهم من القوازيق إلى الشاي في دار سيد من سادة الريف وهو  
ضابط قديم متقاعد يحمل لقب الكونت . فلقد بالغ في إكرامهم هذا  
الكونت الكريم الوفادة الأريحيّ النفس ، فأطعمهم حتى الشبع ، وسقاهم  
من الفودكا حتى الرى ، واستبقاهم للمبيت . ولقد طاب لهم هذا كله  
والتذوّه — مافى ذلك ريب . ولكن الجندى القديم إلى جانب مبالغته  
في إكرامهم قد بالغ أيضاً في منادمتهم وأطال سمرهم — وهنا الخطب . فلم  
يزلّ بهم حتى السحر يهضّب ويسحّ بما كان من أخبار ووقائع ، ويجرّهم  
من غرفة إلى أخرى ليظهرهم على صور نفيسة ونقوش قديمة وسلاح نادر  
المثال ، ويقرأ عليهم رسائل لمشاهير الرجال بخطهم . والضباط جميعهم قد  
استولى عليهم التعب وأخذ الملل بمخنتهم وهم يستمعون ويفغرون أفواههم  
وكلّهم حنينٌ إلى الفراش يتشاءون خفية في أكامهم ، حتى إذا أذن  
صاحب البيت وخلّى عنهم كان قد انقضى وقت النوم .  
أيكون فون رابك كونتاً آخر من الضباط المتقاعدين ؟ جائزٌ جداً .



ولكنه لم يكن من سبيل إلى التحلف عن دعوته . فاعتسل الضباط  
وارتدوا ثيابهم وخرجوا ييمون دار فون رابك . واستخبروا عنها في ساحة  
الكنيسة ، فقيل لهم أن يهبطوا الربوة إلى النهر ، ويسيروا والشاطئ حتى  
يوافوا حدائق الجنرال ، فيجدوا ممراً يؤدي سويًا إلى الدار . وإلا ، فإن  
شاءوا أن يرتقوا الربوة فإنهم يوافون ببيادر الغلة الملحقة بدار الجنرال على  
مسيرة ثلثي الميل من البلدة . وقد آثروا هذه الطريق .

وتساءل أحدهم :

— « ولكن من يكون فون رابك هذا ؟ أهو الذي كان قائداً لفرقة

الفرسان حرف « ن » في موقعة بليفنا ؟ »

— « كلا ، لم يكن فون رابك ، وإنما كان « راب » وحدها عاطلةً

من لقب الشرف »

— « ما أبدع الجو هذه الليلة ! »

وحين وردوا أول البيادر إذاهم بمفرق طريقين ، أحدهما ذاهب قُدماً  
حتى يغيب في ظلمة الغسق ، والآخر عارجٌ إلى اليمين يفضي إلى دار الجنرال .  
وكان الضباط كلما دنوا منها يخافتون من جلبة كلامهم . وكانت تمتد على  
الجانبين صفوفُ بيادر الغلة ، حمر السقوف مبنية من الآجر ، ولها طلعة ثقيلة  
متجهمة كهيئة الشكنات في بلاد الريف . وأمام أعينهم تلتصع الأنوار  
في نوافذ دار فون رابك . . ؟

وصاح أحد الشبان الضباط :

— « بشرى ، أيها السادة ! هذا كلبنا الصياد سابقٌ في الطليعة .  
فنحن لا شك مقبلون على صيد ! »

والكلب الصياد الذى يعنونه بكلامهم هو الملازم لو بتكو ، وكان طويل  
القامة بدينا ، أمرد الوجه أجرده ، ولم يطرّ له شارب ، ولم يخضّر له عذار ،  
مع أنه بلغ الخامسة والعشرين . وقد اشتهر بين رفاقه بأنه يتنسم ريح النساء  
ويخبر عن قربهن بقوة سليقةٍ فيه وإلهام غريزة . والتفت الملازم إلى  
رفاقه حين سمع إشارتهم وقال :

— « أجل ، نفسى تحدثنى أن هناك نساء »

وعند باب الردهة طلع عليهم رجلٌ وسيم الطلعة مدّخر القوة فى الستين  
من عمره ، هو فون رابك فى غير ثوبه العسكرى ، وقد تقدم يستقبل  
مدعويه . وكان وهو يشدّ على أيديهم يعتذر بأنه على شدة سروره بهم  
لا يحتجزهم للمبيت ، فإن عنده من الأضياف شقيقتيه وأولادها وشقيقه  
ونفرًا من أهل جيرته — وأنه فى الواقع لم تبق غرفة خالية . على أنه مع  
هذا الترحيب والإكثار من المعاذير وإظهار التهلل والهشاشة فالواضح  
البديهى أنه إنما دعاهم لأن مراسم الأدب تقضى بذلك . وصعد الضباط  
الدرج المفروش بالطنافس ، وقد سمعوا إلى مضيفهم وأدركوا الأمر كلَّ  
إدراكه ، وتمثل لهم ما هم مُدخلوه على جوّ هذه الدار من شعور بالتهجّم  
والإزعاج . وساءل كلُّ نفسه أَيْكون فى وسع رجلٍ جمع شقيقتيه وأولادها  
وشقيقه وأهل جيرته ليحتفلوا ولا ريب بعيد عائلى أن يرتاح وينبسط



لهجمة تسعة عشر ضابطاً لم يسبق له قط رؤيتهم ؟

وعند باب قاعة الاستقبال وقفت تحييمهم سيدةٌ كبيرة السن ، مديدة الشطاط ، حسنة الصورة ، وجهها أميل إلى الطول ، سوداء الحاجبين ، شديدة الشبه بالأمباطورة السابقة أوجيني . وكانت تهشّ لهم في تأدب ووقار ، وهي تؤكد لهم سرورها بهم ، وتأسف على اشتغال المكان عن مبيتهم . ولكن الابتسامة المتأدبة الوقور غابت حين ولّت منصرفة . وكان ظاهراً جلياً أنها رأت ضباطاً كثيرين في سالف أيامها فليس لهم بعدُ في عينها أدنى طرافة .

وكان يجلس في حجرة المائدة الفسيحة إلى خوانٍ ممدود عشرة من الرجال والنساء يشربون الشاي . وخلفهم وراء حجاب من دخان السيجار يقف نفرٌ من الشبان يلبغون بالحديث ، وبينهم شابٌ أصهب الشاربين مفرط النحافة يتكلم الإنجليزية على الصوت وفي منطقته لثغة . وامتدّ نظر الضباط عبر بابٍ مفتوح فإذا قاعةٌ ساطعة الأنوار مكسوة الجدران بالورق الأزرق .

وقال الجنرال بصوت جهير وهو يتكلف الجذل والحبور :

« أنتم أيها السادة كثيرون يتعذرون تعريفكم فرداً فرداً ، فلتعرفوا أنفسكم بعضكم إلى بعض . أرجوكم ، من غير تكلف مراسم »

فانحنى الزوار تحية ، وعلى وجوه البعض مسحةٌ الجد بل التزمّت ، والبعض الآخر يبسمون ابتسامة فاترة مغتصبة . وبالجملة كانوا كلهم في حال

من الارتباك والضييق . وأخذوا مجالسهم إلى المائدة . وكان أشدهم شعوراً  
بالربة والضييق الكابتين ريابوقتش ، وهو ضابط ضئيل الجسم ، أَفَكَّ  
المنكبين ، ذو عوينات ، وله شارب كشارب القط البرى . وإذا كان  
إخوانه الضباط تبدو عليهم سياء الجد أو الابتسام المفتعل فلقد كانت سمحته  
وشاربه الذى يحكى شارب الهرّ وعويناته جميعاً كأنما تقول : « أنا بين  
ضباط الفرقة أجمعين أشدهم استحياءً واستخذاءً وتفاهة » . وقد ظل طويلاً  
بعد جلوسه إلى المائدة لا يملك حُضر وعيه فى شىء واحد . فالوجوه  
والملابس وقناني الخمر المضلعة وأقداح الشاي الداخنة وزخارف البناء  
البارزة — هذه كلها كانت مختلطة فى إحساس واحد يغمره ويستبدّ به ،  
فتغشاه منه روعة شديدة ، ويجعله يود لو حجب وجهه وأغض عينيه . فهو  
هنا فى مثل موقف المُحاضر للمرة الأولى فى حياته ، فهو يرى الأشياء ولا  
يحقق منها شيئاً ، حتى ليصح القول أنه قد اعتراه ما يسميه رجال الطب  
فى تشخيصهم « بالعمى الباطنى »

ولكنه أخذ يتغلب بعض الشئ على انكماشه واستخذائه فيستوضح  
الأشياء ويرقبها . وكان أول ما استرعى نظره — شأن المنقبض عن الناس  
الخبول — هو تلك المرأة المدهشة التى يبيديها معارفه الجدد . فهذا  
فون رابك وعقليته وسيدتان كبيرتان وفتاة فى ثوب بنفسجى ، وذلك الفتى  
الأصهب الشارب ولعله من فتيان آل فون رابك ، وقد جلسوا إلى الضباط  
الغرباء دون تكلف ومعاناة كأنما قد استعدوا لها كالممثلين بالمرانة على



الحركة والإلقاء ، وسرعان ما خاضوا في أحاديث حامية منوعة لم يلبثوا أن جروا إليها الضباط . فرجال المدفعية أسعدوا حالاً من الفرسان ومن المشاة فيما تقرره ذات الثوب البنفسجي ، ويعارضها في ذلك فون رابك والسيدتان الكبيرتان . وقد استحرج النقاش من غير استقراء واطرادٍ سياق . وكان ريابوفتش يستمع إلى الغادة ذات الثوب البنفسجي وهي تشتد في المناظرة والجدال في موضوع لا علم لها به ولا تدري ما هو ولا أمره ، وقد جعل يرقب الابتسام يظهر ويختفي في أسارير وجهها .

وكان آل فون رابك - إلى براعتهم في جرّ ضيوفهم إلى النقاش والمساجلة - يرقبون كل فم وكل قدح . هل تناول الشاي كل مدعو ، وهل كانت حلاوته كافية ، ولماذا لم يمدّ هذا يده إلى الكعك ، وذلك هل تراه أميل إلى الكونياك ؟ وكان ريابوفتش كلما أصغى لهم وتطلع نحوهم زاد إعجابه بهذه الأسرة المصانعة التامة الدربة .

وانتقل الضيوف بعد الشاي إلى قاعة الاستقبال . أي والله ، إن غريزة لوبتكو لم تكذبه فقد كانت الحجرة غاصة بالغواني والفتيات . ولم تمض دقيقة حتى كان « كلب الصيد » الضابط إلى جانب فتاة في ميعة الصبا شقراء الشعر في ثوب أسود ، وهو يناديها مائلاً في وقفته كأنه مستند إلى سيف غير منظور ، يهز كتفيه في تطرف وعجب . ولا ريب في أنه كان يلغو بكلام لا ظل فيه للطرافة والإيناس ، فإن الفتاة الشقراء كانت تنزو إلى وجهه المعتزّ الراضى بنظرة المسامح المتغاضي ، وكانت لا تزيد على أن



تردد في فتور « حقاً ! » وكان في « حقاً » هذه الفاترة ما هو حقيقٌ بأن  
يقنع كلب الصيد على الفور بأنه أخطأ الطريق وضلّ الأثر .

وبدأت الموسيقى . وكانت نغماتُ مقطوعة الرقص الشجية تطفر إلى  
خارج النافذة المفتوحة ، فإذا القوم يحسون بأن خارج النافذة ربيعٌ في إبانهِ ،  
وأن الليلة من ليالى أيار . وكان الهواء عطراً يعبق برائحة أوراق شجر  
الحور والورود والبنفسج . وكان كلُّ من نغم الرقص والربيع صادقاً خالصاً .  
ودارت في رأس ريابوقتش نشوة الكونياك مشعشة بموسيقى الرقص ،  
فشخص بطرفه إلى ناحية النافذة وعلى وجهه ابتسامة ، ثم جعل يتتبع  
حركات النساء ، وخیل إليه أن شذا الورود والحور والبنفسج لا يتضوع  
من الحداثق في الخارج بل من وجوه أولئك الغواني الناضرة وأبرادهن  
الموشاة .

وأخذ الرجال والنساء يرقصون . وقد دارفون رابك الشاب دورتين  
حول الغرفة مراقصاً لفتاة شديدة النحول . وخفّ الضابط لوبتكو على  
خشب الغرفة الأملس الملمّع وأقبل على الحسناء ذات الثوب البنفسجي  
فسمحت له برقصة . أما ريابوقتش فظل مع غير المراقصين واقفاً بجانب  
الباب ساكناً شاخص البصر . وكان دهشاً لا تنقضى له دهشة من جرأة  
الرجال يخاصرون على مرأى الناس نساء لا يعرفونهن . وحاول أن يتصور  
أنه يصنع صنيعهم ولكنه كان يحاول عبثاً . ولقد أتى عليه حينٌ كان يحسد  
رفاقه على شجاعتهم واقتحامهم ، ويألم من دوام مراجعته لنفسه ، ويحزّ



في قلبه علمه أنه خجول ، أفكّ الكتفين ، ليست له شارة من وجاهة ،  
وأن شاربه كشارب الهر ، وأنه لم يُختص بالنحول خصره بل هو جميعه  
خصرٌ مفرط النحول مديد . غير أنه على تطاول السنين رضى بتفاهة حظه  
واطمان إلى خفاء شأنه . فهو ينظر الآن إلى الراقصين واللاغطين بشعورٍ  
حزين دون أن ينطوى لهم على حسد .

ولعبت الموسيقى توقيعاً آخر للرقص ، وتقدم الشاب فون رابك بعد  
المطلع إلى ضابطين من غير الراقصين ودعاهما إلى شوط بليارد . وغادر  
ثلاثتهم القاعة . ولما كان ريابوقتش واقفاً حامل الوقفة لا يأتي عملاً ، فقد  
أحس بضرورة الحركة مع من يتحركون فخرج في أثرهم . واجتازوا حجرة  
المائدة ، ومروا بدهليز ضيق الجنب ممرّد الأرض ، ثم بغرفة كان فيها ثلاثة  
من الخدم ناعسون على أريكة فوثبوا متفزين ، وبعد أن جاسوا — فيما  
خيل إليهم — جميعَ غرف القصر ، دخلوا حجرة للبليارد صغيرة .

وهنا أخذ فون رابك والضابطان في اللعب . وجاء ريابوقتش — وكان  
لا يعرف إلا لعبة الورق — فوقف إلى المنضدة ينظر إلى لعبهم الذي  
لا يدركه في غير إقبال ولا احتفال . واللاعبون قد حلّوا أزرار معاطفهم  
وجعلوا يلعبون بمضارب البليارد ، ويصولون ويجولون ، مازحين هاتفين  
بمصطلحات غامضة . ولقد تجاهل الجميعُ ريابوقتش ، إلا حين يصطدم به  
لاعبٌ منهم أو يلمسه مضرّبهُ ، فكان يلتفت إليه ويقول قولة موجزة  
« لا مؤاخذه » . ولم يمكث ريابوقتش حتى ينتهى اللعب ، فقد تملكه



الضجر وثقل عليه الإحساس بفضول وجوده في هذا الموضع وقلة لزومه ،  
فصحت نيته على الرجوع إلى حجرة الاستقبال فتحول وانصرف .

وفي أثناء رجوعه وقعت له واقعة ، وما أدراك ما هي ! ذلك أنه  
لم يذهب بعيداً حتى تبين له أنه قد ضل الطريق . فهو يذكّر على وجه  
التحقيق الغرفة التي بها الخدم الثلاثة المهورمون ، فلما أن مرّ بحجرات خمس  
أوست ليس بها أحد بان له غلطه ، فعاد أدراجه ثم عرج على يساره ،  
فإذا هو في غرفة تسودها ظلمة ولم يسبق له أن مرّ بها ، فتردد لحظة ، ثم  
تقدم في جراحة إلى أول باب وجده ففتحه ، فإذا به يجد نفسه في ظلام  
دامس ، وكان بصيص نور يتطرق من خلل باب في الطرف الآخر من  
تلك القاعة ، وصوت الموسيقى من بعيد يخفق مخفوت الصدى بنغمة  
رقص شجية . وكانت النوافذ كنوافذ قاعة الاستقبال مفتوحة على  
مصراعها وشذا الحور والبنفسج والورد يفيض على الهواء

ووقف ريابوقتش متحيراً لا يدري ما يفعل ، وظل السكون مخيماً على  
المكان برهة . وإذا بوقع قدم متعجلة ، ومن حيث لا يحتسب — حفّ  
ثوب حريري ، وهمس صوت ناعم مبهور الأنفاس يقول : « وأخيراً ! »  
وطوّقت جيده ذراعان ناعمتان معطرتان هما حتماً ذراعاً امرأة ، وأحس خدّاً  
دفئاً يلتصق بخده ، ثم قبلة رنانة . على أن القبلة ما كادت ترن في  
السكون الخيم حتى صرخت السيدة المجهولة صرخة عالية وولّت — كما  
خُيّل إلى ريابوقتش — مشمئزّة نافرة . وكاد ريابوقتش نفسه يصرخ ،



ثم هرع لا يلوى على شيء . ولما أن دخل قاعة الاستقبال كان قلبه يدق دقاً شديداً ، ويداه ترتجفان ارتجافاً ظاهراً جعله يشابكهما وراء ظهره . وكان أول ما ملكه من الشعور الخجلُ كأنما كل واحد في القاعة قد عرف ما جرى له توأماً من العناق والتقبيل . فقبع في جلده وجعل يتلفت وجلاً . فلما آنس أن أصحاب الدار والضيوف على حالهم من الاطمئنان يرقصون ويسمرون ، تشجّع وأسلم نفسه لأحاسيس يبلوها للمرة الأولى في حياته . لقد وقع ما لا عهد له بمثله . وإنه ليحس أن عنقه الذي طوقته ذراعان ناعمتان معطرتان منذ هنيئة رطب ندى كالمسوح بالزيت ، وعلى خده عند شاربه الأيسر حيث موقع القبلة يتنمل بردٌ خفيف لنيد كلذع قرص النعناع . وهو من فرعه إلى قدمه في غمرة من أحاسيس جديدة عجيبة ما تزال تشتد وتزيد

وشعر بأن لا بد له من أن يرقص ، ويسمر ، ويكرّ إلى الحديقة ، ويضحك ما شاء من غير حرج ، ونسى النسيان كله أنه أفكّ الكتفين ، لا ميسم له ولا جهارة ، ذو شارب مثل شارب الهر ، وبالجملة أنه « غفل الهيئة » — على حد وصف له جرى يوماً على لسان إحدى السيدات فسمعه عرضاً واتفاقاً . ومرت مدام فون رابك فابتسم لها ملء شذقيه متلطفاً غاية اللطافة . فأقبلت عليه ونظرت إليه متسائلة . فقال وهو يصلح عويناته : « ما أبدع دارك ! »

فردّت مدام فون رابك على ابتسامته بمثلها ، وقالت إن الدار لا تزال

ملكاً لوالدها ، وسأله عما إذا كان أبواه على قيد الحياة ، ولم مضى عليه في الجيش ، وما السبب في هزاله . وانصرفت بعد سماعها إلى أجوبته . على أنه مع انتهاء الحديث وانصرافها ظل ينتسم ابتسامة الرضى ويتأمل مبلغ لطف القوم من معارفه الجدد .

وفي العشاء كان ربابوقتش يأكل ويشرب في حركة آلية ما يوضع أمامه ، ولا يسمع حرفاً من الحديث الدائر حوله منصرفاً بكليته إلى حل ألغاز واقعته الروائية الغامضة . ماذا عسى يكون تفسيرها ؟ إن الأمر فيما يراه بديهى لا يعدو أن إحدى الفتيات تواعدت وحبيبها على اللقاء في الغرفة المظلمة ، وبعد أن انتظرت برهة على غير جدوى صارت من الاضطراب وجهد الأعصاب بحيث التبس عليها ربابوقتش بحبيبها المنتظر ، ويشفع لخطئها أن ربابوقتش عند ولوجه الغرفة المظلمة توقف متردداً كأنما هو أيضاً على موعد . لقد برح الخفاء واتضح المسمى حتى هنا .

« ولكن أى الفتيات هى ؟ » تردد هذا السؤال في خاطره ، فجعل يتصفح وجوه النساء . إنها لا شك من الصبايا الغريات ، لأن العجائز لا يتورطن في مثل هذه المغامرات . ثم إنها ليست من خادMAT القصر ، فذلك ثابت ثبوتاً لا يجوز الغلط فيه من حفيف ثوبها الحريرى ومن عطرها وصوتها .

ونظر أول ما نظر إلى الفتاة ذات الثوب البنفسجى فأعجبته وراقت في عينه ، فإن كتفها وذراعيها جميعاً سوّية الخلق مفرغة في قالب الجمال ، ولها وجه



ذكىّ المعىّ وصوت ساحر . فضرع إلى الله أن تكون هى . غير أنها  
ابتسمت ابتسامتها الماكرة ، فتقلّص أنفها الطويل وبدأت أكبر سناً .  
فزوى ريابوفتش نظره عنها إلى الشقراء ذات الثوب الأسود وهى أصغر سناً  
وأكثر بساطة وصدقاً ، ولها طُرُرٌ على جبينها تسبى اللب ، وكانت ترتشف  
قدحها فى لطف يفوق الوصف . فتمنى ريابوفتش أن تكون هى — ولكنه  
سرعان ما لحظ فى وجهها فرطحة ، فانتنى ينظر إلى جارتها ...

« إن الأمر مشكل لا حيلة فيه ! » . وفكر ملياً : « لو أخذت ذراعى  
الفتاة ذات الثوب البنفسجى وكتفيتها ، مضافاً إليهما خصائل الفتاة الشقراء  
وعينا الفتاة الجالسة إلى يسار لوبتكو ، فعندئذ — »  
ولما تمّ له تأليف صورةٍ من جملة هذه المحاسن تجلّى له منظر الفتاة التى  
قبلته . ولكنه غير واجدٍ لها فى المجلس أثراً .

وانتهى العشاء . وقام الزوار وهم ملائـة نشاوى فودعوا الداعين . وكرر  
صاحب الدار وصاحبته الاعتذار فى عدم احتجازهم للمبيت . وجعل الجنرال  
يردد : « إني جد مسرور ! جد مسرور أيها السادة ! » وكان فى لهجته  
هذه المرة رنة الصدق . ولا جرم فإن تشييع الضيف المرتحل أروح للنفس  
من استقباله بالترحاب وهو غير مرحّب به . إننى جد مسرور حقاً ! وآمل  
ألا تحرمونى من الزيارة فى العودة . أرجوكم — مع رفع الكلفة . أى طريق  
أنتم الآن سالكون ؟ أتصعدون الربوة ؟ لا ، بل انحدروا واجتازوا الحديقة .  
هذه الطريق أوجز »

وأخذ الضباط برأيه . ولا غرو بعد الجلبة والأنوار الساطعة فى الدار



أن ظهرت لهم الحديقة مظلمة ساكنة . فظلوا حتى بابها الجانبى الصغير  
سكوتاً لم يخرجوا عن صمتهم . لقد كانوا طربين ثملين جد مبسوطين إلا أن  
ظلام الليل وسكونه كانا يبعثان على مناجاة النفس وسبحات الفكر . وجرى  
فى خواطرهم جميعاً مثلما جرى فى خاطر ريبوقتش هذا السؤال : « أَو يأتى  
يومٌ يكون لى فيه مثل فون رابك دارٌ كبيرة ، وأُسرة ، وحديقة ، وتسبح  
لى مثل هذه الفرصة للتلطف مع الناس ولو غير مخلصٍ والولية لهم حتى  
يصدروا ملاءً نشاوى مبسوطين ؟ »

فلما أن استدبروا الحديقة انطلقوا جميعاً يتحدثون وتفجروا يتضاحكون  
لغير سبب . وكانت الطريق التى سلكوها تفضى أمامهم إلى النهر فى غير  
التواء . ثم تجرى والنهر ، مطردة معه فى محاذاته ، تدور ما يقوم على  
صفته من خمائل وشعاب وأشجار صفصاف بأفئانه المتدلية . وكانت الطريق  
لا تكاد تبين ، والشاطئ الآخر مغرقاً فى ظلمة حالكة . وكان يتراءى  
فى سواد الماء أحياناً نجومُ السماء ، ولولاهما ما كانوا يتمثلون مسيل العباب  
وسرعة جريانه . وفى العدو عبر النهر كان يزقو طائرٌ وسنان ، وفى بعض  
الخمائل على مقربة منهم كان يهتف بلبلٌ رافعاً عقيرته غير حافل بجمعهم .  
فتألب الضباط واقتمحوا الحميلة ولكن البلبل ظل على حاله ماضياً فى غنائه .  
وردد الضباط معجبين : « لله صفاقته ! إنه لا يحفل بنا فتيلاً ، هذا  
المستهتر المتصايبى ! »

واستأنفوا المسير ، حتى إذا قاربت الرحلة آخرها ، أصدت الطريقُ  
إلى الربوة وأفضت بهم إلى السكة العامة غير بعيد من رحبة الكنيسة .



وكان المرتقى قد نال منهم وبهر أنفاسهم قتها لكوا على العشب وراحوا  
يستجمون ويدخنون . وكان يلتهم ضوءاً أحمر كامد في الشاطئ الآخر  
من النهر . ولما كان يعوزهم في مجلسهم هنا موضوعٌ للحديث ، فقد جعلوا  
يتمارون ويتحاورون في أمره أهو وقود زينةٍ أو نور نافذةٍ أو غير ذلك .  
وتطلع ربابوفتش فيمن تطلع إلى الضوء ، فخيل إليه أنه يبسم ، وأنه يغمز  
له ، كأنه يعرف خبر القبلة

ولما أن بلغوا محلهم بادر ربابوفتش إلى خلع حلته لا يلوى على شيء ،  
وآوى إلى فراشه . وكان شريكاه في المرقد لو بتكو والملازم مرزليا كوف  
وهو رجل طويل الصمت ، ظاهر الرصانة ، وله سمعة بأنه من ذوي البسطة  
في الثقافة والتحصيل ، ولا يرى أينما ذهب إلا وفي يده رسالة « رسول  
أوربا » فهي أبداً معه ، وهو أبداً يقرأها ولا تنقضى له أبد العمر قراءةٌ فيها .  
وكان لو بتكو بعد خلع ثيابه يذرع المقصورة جيئةً وذهاباً نافذ الصبر ، وقد  
أرسل الخادم في طلب جعة له . وأما مرزليا كوف فاضطجع ، وأقام الشمعة  
على وسادته ، واحتجب رأسه وراء « رسول أوربا » كهادته

« ليت شعري أين هي الآن ؟ » بهذا السؤال تحركت شفتا ربابوفتش  
مغمماً يناجي نفسه وهو شاخصٌ إلى السقف المسود بالسناج .

وكانت رقبتة لا يزال بها هذا الإحساس الرطب الندي كالمسوحة  
بالزيت ، وإلى جانب فمه لا يزال موقع القبلة يتنمّل بمثل برودة قرص  
النعناع ، وكان يلتهم في ذهنه على التعاقب كتفا الفتاة البنفسجية وذراعاها ،



والطرر المزرفنة على جبين الفتاة ذات الثوب الأسود وعيناها النجلان  
الصادقتان ، وما يلحق بذلك من خصور مائسة وأبراد موشاة ومشابك  
مجوهرة . وعلى الرغم من مجاهدته في إقرار هذه الصور الشاردة وتثبيتها ،  
فإنها كانت تلتمع وتغمز له ثم تزول . وأخيراً حال لونها وانطمست رسومها  
في ذلك الستار الكثيف الأسود الذي يخيم على أعين الناس عند ما تدب  
في أحفانهم ثقلة الكرى ويرين عليهم النعاس . وأخذ يدوي في سمعه وقع  
أقدام معجلة ، وحفيف أثواب حريرية ، ورنين قبلة . واستولت عليه غبطة  
شديدة فياضة من غير ما سبب . وفيما هو مستكين لهذه الغبطة مسترسل  
معهما ، رجع خادم الملازم لو بتكو يخبر سيده أنه لم يجد إلى الجمعة سبيلاً .  
فعاد الملازم يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو نافذ الصبر مسلوب القرار

وتوقف الملازم عند ربابوفتش ثم عند مرزليا كوف هاتفاً : « إنه لرجل  
أبله ! ليس يمتنع الحصول على الجمعة إلا على الخبايل الأغبياء . وغد ! »  
فقال مرزليا كوف معقباً ، وهو لا يرفع عن ( رسول أوربا ) عينيه :  
« الجميع يعلمون أنه لا سبيل إلى الجمعة هنا »

فهتف لو بتكو : « أو تصدق ذلك ! يا لله ، اقذف بي في فيافي القمر  
فإني لا ألبث خمس دقائق حتى أجد الجمعة والنساء كليهما ! ولسوف أجدهما  
بنفسي هنا . لا كون نذلاً ساقط الشرف إن لم أجدها ! »

وجعل يرتدى ثيابه على مهل ، وأشعل لفافة تبغ ، وخرج  
ثم ارتفع صوته وقد وقف في البهو منادياً « رايبك ، جرايبك ، لايبك .



فى سبيل الشيطان ! لست ذاهباً وحدى . ريابوقتش ، تعال معى  
نتمشى ! ما ذا ؟ »

فلما لم يجب أحد ، رجع أدراجه ، وجعل يخلع ثيابه على مهل ، ثم رقد .  
فتنهـد مرزليا كوف ، وطرح ( رسول أوربا ) جانباً ، وأطفأ النور . وتمتم  
لوبيتكو وهو ينفخ دخان سيجارته فى الظلام : « حسن ؟ »

وجذب ريابوقتش لحافه حتى ذقنه ، وتكوّر تحتـه كالكرة ، وأخذ  
يجهد مخيلته ليضمّ أشـتات المناظر المتـلألئة ويجعل منها صورة واحدة  
متـأسكة ، ولكن الرؤيا تأبّت عليه وولّت عنه . ثم لم يعتم أن غلبه النوم ،  
وكان آخر إحساسه قبل السبات أنه كان موضع ملاطفة وإسعاد ومسرة ،  
وأن حياته دبّ إليها شىء غريب ، شىء عجـبٌ مضحك ، ولكنه  
جميلٌ ومشرق على نحو غير عادى . ولم يبرحه هذا الخاطر حتى فى أحلامه .

واستيقظ مع الصباح ، ورنا كالمسحور إلى زجاج النافذة يتوهج  
كالذهب من شعاع الشمس الطالعة ، وأنصت إلى الضوضاء فى الخارج .  
وكان إحساسه بالنداوة فى عنقه وبرودة قرص النعناع فى خده قد ذهب  
عنه ، ولكن الفرح بالليلة البارحة كان ملء جوانحه يسرى فى كل عرق  
من عروقه .





## الصمت

« للروائي الروسي ليونيد اندرييف »

( ١ )

فى ليلة مقمرة من لىالى أيار ، والبلابل يلعلع صوتها فى القمراء شادية مشجية ، أقبلت أولجا ستبانوفنا على زوجها الأب إجناتى وهو جالس إلى مكتبه . وكانت أسارىر وجهها ناطقة بأمض الحزن وأوجعه ، والسراج فى يدها مهتز مرتجف . فلما دانتة ، لمست براحتها منكبه وقالت محتنقة الصوت مجهشة .

— أبتاه ، لنصعد إلى ابنتنا فيروتشكا !

فتجهّم الأب إجناتى وقطب حاجبيه من فوق عدساته ولم يلتفت إليها ، وظل شاخصاً ببصره فى الفضاء طويلا حتى أسقط فى يدها . فقلّبت كفها تقليب المهموم الجزع ، وتهالكت على أريكة منخفضة هناك وقالت :

— ما أقسا كما كليكما !

قالت ذلك بصوت متبّد وشدّدت على لفظ « كليكما » أبلغ التشديد وأفجعه ، وقد تقلص وجهها المظّهم الحنون بأمارات من الألم والعنت ، وكأنما أرادت أن تفصح بسيماها وأمارات محياها عن مبلغ ما تعاني من قسوة القوم : زوجها وابنتها .

وأرسل إجناتى ضحكةً فاترةً ونهض . ثم أطبق كتابه وخلع عدساته  
ودسّها في علبته وأطال التفكير مكتئباً . وقد استرسلت على صدره أجملَ  
استرسالٍ لحيّةٍ جثلةٍ وخطها المشيبُ ، وكانت تعلو وتهبط في هواده مع  
أنفاسه المرددة العميقة .

وبعد هنيهة قال : « حسن . نذهب »

فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوتٍ متوجسٍ متزلفٍ : « وإنا  
رجائى إليك يا أبتاه ألا تعنفها . أنت تعرف طباعها »

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى إليها خشبي  
ضيق ، فكان ينيخ ويصرّ تحت أقدام الأب إجناتى وخطاه الثقيلة .  
وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه أن ينحني حتى لا تصطدم  
هامته بسقف السلم . وكانت زوجته في ثوبها الأبيض فلمس رُدْنُها وجهه  
فانقبضت أساريره وعبس متمللاً متبرماً . وولج الغرفة وراءها وهو موقن  
أنهما لن يخرجوا من الحديث عن ابنتهما قيرا بأدنى طائل .

وقالت قيرا : « يا لله ، هذا أتما ؟ » ورفعت إلى عينيها ذراعاً عارية .  
وبقيت ذراعها الأخرى على الاحاف الصيفي الأبيض لا تكاد تميز عنه  
لفرط بياضها وشفوف لونها وبرودة مجسها .

فابتدرتها الأم بندائها « فيروتشكا ! » وخنقتها العبرة فسكتت . وقال  
الأب إجناتى وهو يجاهد للتلطيف من خشونة صوته وجفوته :

— « قيرا ! خبرينا ماذا بك ؟ »



فظلت فيروتشكا صامتة .

وعاود الأب إجناتى خطابه « فيرا ! أترين أمك وأنا غير أهلٍ لمناجاتنا بأمرك والاستراحة إلينا بذات صدرك ؟ ألسنا نحبك ؟ وهل لك من أحدٍ هو أقرب إليك وأمسّ بك منا ؟ بئى إلينا شجوك ، وصدقيني — أنا الشيخ الجرب — أنك واجدةٌ بعدها بعض الراحة ، وكذلك نحن . انظري إلى أمك العجوز وكيف عذابها . فيروتشكا ! وأنا ... » وهناتهدج صوته وكأنما انشعب شيءٌ فيه وانصدع شطرين « .. وأنا ، أيهون ذلك على ، تحسبينه يهون ؟ كأننى لست أبصرك نهب لوعة ! ... ولكن ما هى ؟ وأنا ، أبوك ، تتركينى على جهلٍ بها ، أيصح هذا ؟ »

ولكن فيروتشكا ما برحت صامتة . والأب إجناتى جالس حياها يعبت بلحيته ويمسح عليها فى تحفظٍ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالمنتف أصابعه المضطربة من حيث لا يشعر . ومضى فى حديثه يقول :

— « خالفت مشيئتى وذهبت إلى بتروغراد — فهل لعنتك على مخالفتك إياى ؟ أكنتُ عليك يوماً بالمال ضنيناً ؟ أتقولين إنى لم أك برّاً بك ، حدباً عليك ؟ إذن ، لم لا تتكلمين ؟ انظري ، أى خير أصبت من بتروغراد ! »

واقطع الأب إجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل لخاطره كالعيان بناءً من الجرانيت هائل رهيب ، حافلٌ بأخطار راصدة كامنة ، مكتظٌ بخلقٍ غريبةٍ أطوارهم ، جاسيةٍ مشاعرهم . وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ،

وهنا كان تلفها وضياعها . فجاشت في نفس الأب إجناتى نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة ، تشوبها النقمة على ابنته ، تلك التى ما فتئت صامتة ، صامتة فى تشبث وعناد .

أما هى فأجابته بحفاء وقد أطبقت جفניה :  
— « لا دخل البتة لبتروغراد فيما أنا فيه . على أنه لا شئ بى .

والأولى أن تذهبا للنوم ، فالساعة متأخرة »

فأنت الأم : « فيروتشكا ! اطمئنى إلى بسريترك يا بنيتى ! »

فقاطعتها فيروتشكا نافذة الصبر : « كفى يا أمى ! »

وجلس الأب إجناتى على مقعد وجعل يضحك ، ثم قال متهمكا :

— « حسن والله ! ليس فى الأمر شئ بعد هذا كله ؟ »

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة ، وقد أقامت صعدتها واستوفزت

فى فراشها :

« أبت ! أنت تعلم حبى لك ولأمى ، ولكنى إنما أشعر بخمود شديد ،

وسيزول هذا كله . . . والحق أنه أولى لكما الذهاب للنوم ، وإنى لراغبة

فيه أيضاً . غداً ، أو فى يوم من الأيام ، سيكون لنا متسعٌ للحديث »

فهبَّ الأب إجناتى قائماً قومة واحدة حتى ارتج مقعده وصدم الحائط

وراءه . وأخذ بذراع زوجته قائلاً : « لنذهب »

فأنت هذه « فيروتشكا . . . ! »



فصاح بها الأب إجناتى : « قلت لك لنذهب . وإذا كانت قد نسيت  
الله ، فهل ننسأ مثلها ، ولماذا ! »

واجتذبتها للخروج فى شىء من العنوة والقسر . وكانت - وهما يهبطان  
السلم - تجرّ أقدامها جرّاً يزداد تشاقلاً وضعفاً . وغغممت المرأة فى همسة  
مغضبة : « أفّ ! أنت أيها القس الذى جعلتها كذاك . عنك دون سواك  
أخذت هذا الطبع . إنك لمستول عنه . آه ياربى ، ما أتعسنى ! »

وجعلت تولول واكفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم تعد تتبين مواقع  
خطاها ، بل كانت تاركة قدمها تهبط الدرج كأنه هاوية ترغب فى التردى فيها .  
ومن ذلك الحين صحت عزيمة الأب إجناتى ألا يكلم ابنته . وكأنما لم  
تظن الابنة الى هذا التغيير منه ، وظلت كعهدها تضطجع آونة فى غرفتها  
وآونة تعمد إلى الخروج . وكانت كثيراً ما تمسح بالراحتين عينيها كأن  
عليهما غشاوة . ولكن صمت الأب وابنته كان يثقل على الأم ويكرّبها ،  
فباتت وهى بالأمس المولعة بالمزاح والضحك أبعد أهل الأرض عنهما ،  
فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل .

كانت فيروتشكا - كما تقدّم القول - تخرج أحياناً تتمشى وتعود .  
فحدث بعد أسبوع من المقابلة الآنفة الذكر أن خرجت خروجها المعتاد كل  
مساء . وشاء القدر أن تكون هذه آخر رؤيتهما لها حية ، فانها فى ذلك  
المساء ألفت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين .

\*\*\*



وقام الأب إجناتى بدفنها ، ولم تشهد زوجته حفلة الصلاة عليها فى الكنيسة لأن صدمة نعى فيروتشكا أصابتها بالقالج ، فقدماها وذراعاها ولسانها جميعاً مشلولة الحركة . فبقيت طريحة الفراش فى غرفة محجوبة الضوء . وعلى مقربة منها تدق الأجراس فى القباب مغمولة نادية . وإنها لتسمع موكب الجنازة خارجاً من الكنيسة وتسمع المرتلين ينشدون فى مرورهم أمام المنزل ولقد هممت لترفع يدها وترسم إشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وأرادت أن تقول « الوداع يا فيروتشكا » ولكن لسانها لصّب فى فمها هامداً مورّماً ثقيلاً . وهكذا بقيت طريحة بلا حراك حتى ليحسبها الرائي هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان .

وشهد الجنازة فى الكنيسة جمعٌ حافل من معارف الأب إجناتى والغرباء عنه . وكلهم مترحمٌ على فيروتشكا متوجع لمصرعها . وهم فى الوقت نفسه يتتبعون حركات الأب إجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بها على عميق حزنه ولا عجب جواه ، إذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما فى خلقه من عنجهية وعجرفة ، ولشدته وصرامته مع من أذنب منهم ثم أراد على يديه التوبة والإنابة ، فضلاً عن أنه حسود جشع لا تعرض له فرصة إلا انتهزها ليمتقضى من دائرته أكثر من حقه . فهم جميعاً يودون التشفى برؤيته متألماً كبيراً ، يودون أن يروا منه الإقرار على نفسه بذنبه المضاعف فى مصرع ابنته — بصفته أباً فظلاً غليظ الطبع ، ثم بصفته قساً ظهر عجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة . وهم قد أمعنوا فى ملاحظته والتطلع



إليه . ولكن الأب إجناتى كان قد آنس اتجاه أنظارهم أجمعين إلى كاهله العريض المسكين ليروا كيف تنحني قناتهُ ويطأطأء إشرافه تحت وقرِ الفادحة ، فلم يأل جهداً فى نصب قامته وإقامة صعدته . وكان فى تلك الساعة أقل تفكيراً فى فقد ابنته منه فى صون كرامته .

والمع كرزنوف وقد أنغض رأسه إلى ناحيته : « قس صلبٌ منيع »  
وكرزنوف هذا نجارٌ يدين القس بضمن بعض الأطر .

وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة الشطاط سار الأب إجناتى إلى المدفن . وعلى هذه الحال نفسها عاد منه ، حتى إذا كان عند باب غرفة زوجته انحنى كاهله قليلاً — وقد يكون سبب ذلك أن الباب دون قامته ارتفاعاً . وكان الرجل قادماً من وضح النور فلم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها ، فلما أن تبينه وجدها هادئة . ووجد أنه لا دمع فى عينيها ، وليس بهما نقمةٌ ولا حزن ، فهما خرساوان صامتتان صمتَ ألمٍ وعناد ، وكذلك كان جسمها البدين المتراخى المسند إلى حاجر الفراش .

فسألها : « والآن ، ماذا ؟ كيف حالك ؟ »

ولكن شفتيها ظلتا خرساوين وعينيها ما زالتا صامتتين . فوضع الأب إجناتى راحته على جبينها ، فإذا هو خصرٌ رطب . ولم يبد من أوجاستبانقنا أدنى دلالة على أنها أحست لمسته . فلما أن رفع راحته عن جبينها كانت عينان غائرتان سوداوان تشخصان إليه منها دون أن يطرف لهما هذب ،

وتسكاد تكون حدقة العينين فاحمةً كلها بسبب تمدد إنسانهما ، ولم يكن فيهما  
حزن ولا نقمة .

فغمغم الأب إجناتى ، وقد بردت أطرافه وارتعدت فرائصه : « حسن ،  
أنا ذاهب إلى غرفتى »

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شيء كعهده نظيفٌ مرتب والمقاعد  
الكبيرة مسرولةٌ فى أغطيتها البيضاء كأنها الموتى فى أكفانها . وفى إحدى  
النوافذ قفص معلق ، ولكنه كان خاوياً وبابه مفتوح .

ونادى الأب إجناتى « نستاسيا ! » فبداله أن صوته أجشٌ ، وأحس  
أنه يسىء صنعاً بعيد جنازة ابنته أن يرفع الصوت إلى هذا الحد فى تلك  
الحجرات الهادئة . فعاود النداء بصوت أكثر تلطفاً وخفوتاً : « نستاسيا !  
أين الكنارى ؟ »

فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة النحيب منتفخٌ وارم ولونه قانٍ كالجزر  
وأجابت بجفاء : « لا أدرى . لقد طار »

فقطب الأب إجناتى حاجبيه مغضباً ، وصاح بها : « وكيف تركته  
يطير ؟ »

فأجهشت تبكى وتمسح دموعها بذوائب المنديل المعصوب به رأسها .  
وقالت : « إنه الروح الجميلة العزيزة لسيدتى الصغيرة الراحلة ، فكيف  
لى بحبسه ؟ »

وخيل إلى الأب إجناتى نفسه أن الكنارى الصغير الفاقع اللون السعيد



الذى كان دأبه التغيريد شامخاً برأسه قد كان حقيقةً روح فيروتشكا ، وأنه  
لوم يطر الكنارى لما صحَّ القول بموت فيروتشكا . فاشتدت نغمته على  
الطاهية وصرخ بها :

« اغربى عن وجهى ! » ولما لم تبادر إلى الباب توأ زاد : « مجنونة ! »

## ( ٢ )

ومنذ يوم الجنازة والصمتُ نخم على هذه الدار الصغيرة . وليس المراد  
بالصمت هنا السكون . فالسكون إنما هو عدم الجلبة . وأما الذى هنا فهو ،  
الصمت ، وذلك أنه يُشعر أن الذين التزموه فى مقدورهم الكلام لو شاءوا .  
وهذا الشعور يقع فى نفس الأب إجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقي  
نظرتها الشاحصة ملحةً ثقيلةً حتى لكأنما استحال هواء الغرفة رصاصاً  
يضغط رأسه ويُنقض ظهره . وهذا الشعور يقع فى نفسه حين يتأمل معزف  
ابنته الذى انطبع عليه صوتها الحى ، وحين يتطلع إلى كتبها ويقبل على  
صورتها — وهى صورة لها بالألوان جاءت بها معها من بتروغراد ، ولقد  
أخذ على نهج خاص به يتفرّس فيها .

فهو يقبل أول ما يقبل من الصورة على عنقها يتأمله وهو منها بمطرح الضوء ،  
فيخيل إليه أن عليه فى الصورة خدشاً كالذى كان على جيد فيروتشكا الميتة .  
وإنه لفى حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وهو فى كل مرة يعمل الفكر

للاهتمام إلى سببه وعلمته . فلو أن القطار هو الذى صدمها فى هذا الموضع  
لكان هشّم رأسها بأكمله ، ورأس قفيرا الميتة سليم كل السلامة .  
أترى بعضهم وطأها برجله وهم يرفعون الجثة لحملها إلى المنزل ، أم أنه  
أثر ظفرٍ خدشها من غير قصد ؟

ولكن إطالة التفكير فى تفصيل مصرعها كان يشقّ على الأب إجناتى  
ويروعه ، فيتحوّل عندها إلى تأمل عينيها فى الصورة . وكانتا سوداوين  
نجلالوين ، وكان لأهدابهما الوطفاء ظلٌّ وريفٌ تحتهما يزيد بياض المقلتين  
نصوعاً فتبدو العينان وكأنهما فى إطارين من أطر الحداد السود . وقد جعل  
لها المصور المجهول — وهو لا شك من الفنانين الموهوبين — معنى غريباً .  
فقد كان يخيّل أن بين هاتين العينين وبين ما تقعان عليه غشاء رقيقاً شفيفاً ،  
كما تعلو غطاء معزف البيانو اللامع السواد غشاوةً من غبار الصيف خفيفة  
لاتكاد تبين ، وهى على خفائها تكمد من لآلئ الخشب المجلو . وكان الأب  
إجناتى فى حينها وضع الصورة تابعته عيناها ، غير ناطقتين ، بل أبداً  
صامتتين . وبأن للصمت فى المنزل وجودٌ ظاهر حتى ليخيل أن فى الإمكان  
سماعه . وما زالت الحال على هذا المنوال حتى وقر فى نفس الأب إجناتى  
أنه يسمع الصمت .

وكان الأب إجناتى بعد تأدية القربان المقدس فى كل صباح يقصد  
إلى قاعة الجلوس ، ويأخذ بصره فى لحظة واحدة قفص الكنارى الخاوى  
وسائر الأثاث فى ترتيبه المعهود . فيجلس فى أحد المقاعد الكبيرة ، ويطبق



جفنيه ، ويستمع إلى صمت المنزل . وكان أمراً عجيباً . فالفقص صامت في وداعة ولطف ، وفي هذا الصمت كان يحس الأسى والدموع والضحك الفقيد البعيد جميعاً . ثم صمت الزوجة ، وكان مع قيام الجدران من دونه وأثر اعتراضها في تخفيف وطأته لا يزال ملحاً ثقيلاً كالرصا ص — ومرعباً ، مربعاً حتى ليأخذه بردُ المقرور في أشد الأيام وقدة قيظ . أما الابنة فكان صمتها لا آخر له ، بارداً كالقبر ، غامضاً كالموت ، ثم كان الصمت كأنما يشقى بنفسه ، وكأنما يتلهف على التحول إلى نطق ، لولا أن شيئاً له قوة الآلة وجودها يمسكه عن الحركة ويمده كامتداد السلك . وإذا السلك يهتز من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد ، ويصدر عنه صوت ناعم خافتٌ حنون . فيحفز الأب إجناتى حافزاً من الرغبة المشوبة بالرهبة إلى تسقط بادرة هذا الصوت ، فيشد بكفيه على جانبي المقعد ، ويمد رأسه متسمعاً مترقباً بلوغ الصوت إليه ، ولكن الصوت ينقطع وينطوى في غمرة الصمت .

ويهتف الأب إجناتى وقد ركب الغضب : « عبثٌ باطل وأضغاث أحلام » ويهب من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كعهده على الدوام . وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابجة في ضح الشمس . والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الأطراف ممرّدة . وفي الناحية الأخرى يقوم سورٌ حجري ممدود لا نوافذ له وهو مخزن من مخازن البضاعة . وكانت في الركن مركبة واقفة كأنها نُصب من الطين قائم ، ولم يكن السبب

مفهوماً في استمرار وقوفها هناك مع أن الساعات الطويلة تنقضي ولا يظهر عابرٌ واحد في هذه الطريق .

### ( ٣ )

وكان على الأب إجناتي في خارج البيت أن يتحدث إلى الكثيرين : مع مرءوسيه من رجال الدين ، ومع السكان في دائرته الكنسية في أثناء قيامه بفرائضه ، وأحياناً مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثورٌ ومحمود . ولكنه كان حين يؤوب وتحتويه غرفته يخيل إليه أنه قضى سحابة نهاره صامتاً . ذلك أنه لم يكن ليتحدث إلى واحد من هؤلاء عن المسألة التي هي عنده أمُّ المسائل وأهمها والتي تهيج كل ليلة بلائله وتلعج خاطره : فيم مية فير وتشكا ؟ ؟

ولقد أبى الأب إجناتي التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ، ولم يزل على اعتقاده بإمكان كشفها وجلاء غامضها .

فكان يحي لياليه مسهداً تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التي وقف فيها وزوجته في جوف الليل إلى فراش فير وتشكا وهو يستعطفها ويسوق إليها الرجاء أن « تكلمي ! » . فاذا بلغت به الذكري إلى هذه الكلمة تمثلت له بقية المشهد على خلاف ما وقع . ولقد ادخرت عيناه المطبقتان في ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تتمثلان في جلاء فير وتشكا وقد استوفزت في فراشها وقالت مبتسمة — ولكن ماذا قالت ؟ .. إن تلك



الكلمة التي لم تلفظها ، والتي بها جلاء المشكل كله ، تلك الكلمة تبدو كأنها قريبة ، جد قريبة . فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان قلبه ، إذن ، إذن لسمعها — ولكنها في الوقت نفسه كانت بعيدة بلا حد وبغير أمل .

عندها يهبط الأب إجناتي من فراشه ويبسط يديه مضمومتين معاً في توسل وضراعة منادياً : « فيروتشكا ! »  
ولا جواب على ندائه إلا الصمت .

وفي ذات مساء قصد الأب إجناتي إلى غرفة أولجا اسببناقنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أسبوع ، وجلس عند فراشها وهو مشيحٌ بوجهه عن ناظرها الشاخصين الفاجعين ، وقال :

« أيتها الأم ! أريد التحدث معك عن فيروتشكا . أسمعيني ؟ »  
فظل ناظرها صامتتين ، فرفع الأب إجناتي عقيرته واشتدّ مثل شدته مع المعترفين في خطابها :

« أعرف أنك تحملين عليّ الذنب في مصرع فيروتشكا . ولكن مهلاً ! أكنت أقل منك حباً لها ؟ إنك لغريبة الرأي — لقد كنت متزمتاً متشدداً ، ولكن هل حال ذلك بينها وبين ما شاءت ؟ لقد تغاضيت عمالي عليها من حق الوالد في الحرمه والاعتبار ، فطأطأت صاغراً حين ارتحلت — غير حافلة نقمتي واستنزال لعنتي — إلى هنالك . وأنت — أيتها الأم — ألم تضرعي إليها باكية تناشدينها البقاء ، حتى أمرتُك

أن تكفى ؟ أمستول أنا عن أنها وُلدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها ما ينبغي  
علمه عن الله والطاعة والحب ؟ »

وأدار الأب إجناتى ناحية زوجته نظرة خاطفة إلى عينيها الشاهختين ،  
ثم أشاح مستأنفاً :

« ماذا كنت صانعاً معها ، وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت  
الكشف لى عن شجوها . أ كنت أمرها ؟ لقد أمرتها . أ كنت أستعطفها ؟  
لقد استعطفتها . ماذا ؟ أترين أنه كان على أن أجثو عند قدمى الصبية  
راكعاً وأنتحب كالمرأة العجوز ؟ ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها  
ما أصابها ، لست أدرى . يا لها من ابنة عاقّة ، لا قلب لها !

ودقّ الأب إجناتى على ركبتيه بجمع يديه .

« لقد تجرّدت من الحب — هو ذاك . إني أعرف ما كانت تصفنى  
به : مستبدّ غشوم . وأنت ، كانت تحبك ، أليس كذلك ؟ أنت التى  
بكيت ، و... تذلت ؟ »

وضحك الأب إجناتى ضحكة خافتة :

« تحبك ! أى نعم ، وهى برّاً بك قد اختارت هذه الميئة ، ميئة شنيعة  
شائنة ! فماتت على القفض والحصى المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت  
على الأقدار — كالكلب ، جندلته رفسةً بالنعل على خطمه »

وغغم الأب إجناتى بصوت هامس أبح :



« ما أشد خزي ! إني ليتولاني الحزى إذا خرجتُ إلى الطريق !  
يتولاني إذا خرجت من الحراب ، يتولاني بين يدي الله ! يالك ابنة  
قاسية خسيسة . إنك لتستحقين اللعنة في قبرك . »

وَأَلْقَى الأبُ إِجْنَاتِي عَلَى زَوْجَتِهِ نَظْرَةً ثَانِيَةً ، فَإِذَا هِيَ مَغْشَى عَلَيْهَا ،  
وَلَمْ تَفْقَ مِنْ غَشْيَتِهَا إِلَّا بَعْدَ سَاعَاتٍ . وَلَمَّا أَفَاقَتْ كَانَتْ عَيْنَاهَا صَامَتَتَيْنِ ،  
هِيَهَاتَ يَعْلَمُ النَّازِرُ إِلَيْهِمَا إِنْ كَانَتْ فَقَهَتْ أَوْ لَمْ تَفْقَهُ مَقَالَ الأبِّ إِجْنَاتِي لَهَا .  
وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ — وَكَانَتْ لَيْلَةً مَقْمَرَةً مِنْ لَيَالِي تَمُوزَ ، سَاجِيَةً دَافِئَةً  
يُخَيِّمُ السَّكُونُ عَلَيْهَا — قَامَ الأبُّ إِجْنَاتِي يَدْبُ عَلَى أَطْرَافِ قَدَمَيْهِ حَتَّى  
لَا تَسْمَعَهُ الزَّوْجَةُ وَلَا مَرْضَتُهَا ، وَصَعِدَ السُّلْمَ إِلَى غُرْفَةِ فَيُورْتَشِكَا . وَكَانَتْ  
نَافِذَتُهَا مِنْ يَوْمِ وَفَاةِ ابْنَتِهِ لَمْ تَفْتَحْ ، وَكَانَ فِي جَوْهَا حَرَارَةٌ وَجَفَافٌ تَشُوبُهُمَا  
رَائِحَةُ احْتِرَاقٍ خَفِيفَةٍ مِنْ حَدِيدِ السَّقْفِ الْمُسْتَهْدَفِ طَوَالَ النَّهَارِ لَوْقَدَةِ  
الشَّمْسِ . وَكَانَ إِحْسَاسُ الْوَحْشَةِ وَالْإِقْوَاءِ مُخِيماً عَلَى الْغُرْفَةِ الَّتِي طَالَتْ  
غَيْبَةُ الْإِنْسَانِ عَنْهَا ، وَكَانَتْ الْأُلُوحُ الْكَاسِيَةُ لَجْدَرَانِهَا وَسَائِرُ مَا بَهَا مِنْ  
الْأَثَاثِ وَغَيْرِهِ يَتَفَاوَحُ مِنْهَا مِثْلُ رِيحِ الْعَطْنِ وَالْإِنْحِلَالِ .

وَكَانَ ضِيَاءُ الْقَمَرِ يَنْفِذُ مِنْ زَجَاجِ النَّافِذَةِ وَيَنْبَسِطُ عَلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ  
كَشَرِيطٍ وَضَاءٍ ، وَكَانَتْ تَعَكْسُهُ الْمَنَاضِدُ بِظُلَالِهَا الْأَبْيَضِ النَّاصِعِ فَيَنْبِرُ  
أَرْكَانُ الْغُرْفَةِ بِنُورٍ كَلِيلٍ شَعْشَعَانٍ ، وَيَبْدُو الْفِرَاشُ الْأَبْيَضُ النَّظِيفُ  
بِوَسَادَتَيْهِ الْكُبْرَى وَالصَّغْرَى وَكَأَنَّهُ شَبَحٌ مِنْ عَالَمِ الْأَطْيَافِ . وَفَتَحَ الأبُّ  
إِجْنَاتِي النَّافِذَةَ . فَانْدَفَعَ إِلَى دَاخِلِ الْغُرْفَةِ تَيَارٌ غَمَرَهُ مِنَ الْهَوَاءِ النَّقِيِّ ،

يستروح فيه الناشقُ تراب النهر الجاور وعبق الزيفونة المزهرة ، ويحمل  
إلى المتسمّع المصغى نشيداً خفيضاً لعله لقومٍ في قارب على النهر يجدفون ،  
وفي تجديفهم ينشدون .

ودبّ الأب إجناتى عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث صوتاً .  
ودنا من الفراش الخاوى ، وخرّ مكباً على وجهه فوق الوسائد يضمها — فى  
حيث كان متوسّد وجهه فيروتشكا .

وظل على هذه الحال طويلاً . . . وتعالى النشيد فى الخارج ، ثم أخذ  
يخفت حتى لم يعد مسموعاً . . . والأب إجناتى لا يزال فى مكانه ، وشعره  
المرسل مشعّت مهدّل على كتفيه وعلى الفراش .

ودلف القمر فى مسراه مجتازاً ، فأظلمت الغرفة واستفاضت العتمة ،  
ورفع الأب إجناتى رأسه وهتف بصوتٍ أفرغ فيه كلّ حبه الذى كبته  
وأطال كظمه بلا بثٍ ولا تصريح . وكان يهتف وينصت لما يقول ، وكأن  
المنصت ليس هو وإنما هى فيرا : « فيرا ، يا ابنتى ! أتدركين معنى ابنتى ؟  
يا بنيتى ! مهجتي ! دمي ! حياتى ! هذا أبوك ، أبوك الشيخ المسكين وقد  
علاه الشيب وخذلقته القوى » . وانتفض منكباه ، وسرت رجفة فى كيانه  
الضليع من فرعه إلى أخمص قدمه . ثم همس متهدجاً فى صوت رفيق لين  
كأنما يناغى طفلة :

« أبوك الشيخ المسكين يسألك . نعم يا فيرا إنه يستعطفك . إنه ليبكي



ولم يكن البكاء قط من شأنه . إن أملك يا بنيّ ولوعتك يحزّان في نفسى  
كما لو كانا بى . بل أشد وأنكى »

وهزّ الأب إجناتى رأسه :

« أشد وأنكى ، يا فيرا . وما يكون الموت عندى ، أنا الشيخ ؟ ولكن  
أنت ... آه لو علمت ما كان من رقتك ، ولطافة بنيّك ومبلغ حيائك  
وتهيبك ! أتذكرين إذ وخزت إبرة أصبعك ونضح منها الدم فطفقت  
تصرخين . نعم يا بنيّ ! وكنت تحبيننى حقاً ، بل تشغفين بى حباً ، أعلم  
ذلك . وكنت فى كل صباح تقبلين يدى . تكلمى ، خبرينى عن هذا الذى  
يحزنك — فإنى بهاتين اليدين خائفٌ حزرك . إنهما ما برحتا قويتين ،  
هاتين اليدين ، يا فيرا »

واهترت خصائلُ شعره .

« تكلمى ! »

وشخص بعينه إلى الحائط ، وبسط يديه ، وصاح :

« تكلمى »

ولكن الغرفة صامتة . ثم حملت الريحُ إليها من بعدٍ سحيق هتفاتٍ  
مديدة ومقتضبة من صفير قاطرةٍ عابرة .

فأدار الأب إجناتى عينيّن اتسع حلاقهُما كأن أمامه شبح الجثة  
مبتورة الأشاء ممثلاً لعيانه . ثم نهض من ركوعه على مهلٍ متسانداً ،  
ورفع كالأهل إلى رأسه يداً مشنّجة ، منفرجة الأشاجع ممدودة الأصابع .

ومضى الأب إجناتى إلى الباب ، وفى خروجه همس فى حدة :  
« تكلمى ! »

فكان جوابه الصمت .

— ٤ —

فى اليوم التالى تناول الأب إجناتى غذاءه على انفراد مبكراً ، ثم أخذ سمته إلى المدفن لأول مرة بعد وفاة ابنته . وكان المدفن موصداً مهجوراً لا تحس فيه نائمة ، حتى لكان النهار القائط لفرط هدوئه ليلة منيرة إضحيانة . على أن الأب إجناتى نصّب قامته كدأبه مجاهداً ، وأدار بصره من جانبٍ لآخر بجفوة وصرامة ، وهو يزعم أنه كعهده بنفسه لم يتغير . ولم يفتن إلى تخاذل طارئ فظيع يفت فى ساقيه ، ولم ير إلى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شيئاً كأنما أصابها صقيع هتون . وكانت الطريق إلى المدفن طويلة ممتدة ، مستقيمة الامتداد ، آخذة فى ارتفاع لطيف المرتقى ، وفى آخرها باب المدفن من خشب الزيزفون يظله سقف أبيض ملتصع فكانه فم مسودّ الحلق فاغر الشدقين وعلى حافته أنياب قواطع لوامع .

وكان قبر قبرا موعلاً فى جوف المدفن بعد أن تنتهى الماشى المفروشة بالحصباء . فكان على الأب إجناتى أن يطيل الطواف فى مسالك ضيقة مجتازاً بمنعرجات من كسبان صغيرة من الأجداث ناتئة بين الحشائش مهملة منسية من الجميع . وكان يلتقى هنا وهناك بأنصاب متداعية حائلة اللون



مخضرة من القدم ، وحواجز مقووضة متهدمة ، ورجام من الحجارة ثقال  
ضخام ملقاة تبهظ صدر الثرى كأن بها عليه حقدًا كحقد الشيخ بأسراً  
متجهماً .

وعلى مقربة من بعض هذه الرجام ، كان قبر فيرا . وكان المدر المعشوشب  
فوقه مصفراً ذابلاً على حداثة عهده وعلى حين كان ما حوله كله يانعاً ناضراً .  
وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، وإلى ناحية منهما خميلة ممتدة من  
شجيرات البندق وارفة الظل تبسط أفنانها اللينة الأعطاف بأوراقها  
الحشوشنة الوبراء على القبر .

فجلس الأب إجناتى على ضريح تجاه ضريح ابنته وهو يتنهد بين الفينة  
والأخرى . وجعل يتلفت حواليه ، وألقى نظرة على صحراء السماء الضاحية .  
وكان قرص الشمس المتقدم معلّقاً فى مكانه جامداً بغير حراك . فأحس  
الساعة فقط عمق ما يرين على المدفن من سكونٍ ليس كمثل سكون ، والريح  
هامدة لا تهفو لها نسمة فى الأوراق الجافة الميتة . وقام فى خاطر الأب  
إجناتى مرة أخرى أن هذا ليس بالسكون ، ولكنه الصمت . وفاض  
الصمت ، فاض وطمّ حتى بلغ أسوار المدفن نفسها وتسوّرها متثاقلاً وانساح  
يغمر المدينة . وأما آخره ، طرفه الآخر ، فإنما هو هنالك ، فى هاتين العينين  
السوداوين الشاختين المصرّتين فى تعنت وعناد على الصمت .

هز الأب إجناتى كتفيه ، وقد سرت البرودة فيهما . وسرّح نظره على

قبر فيرا . وطال تأمله لعيدان الحشائش القصيرة المصوَّحة وقد كان انتزاعها من منابتها ببعض الرياض النَّزْهَةِ الفيحاء فلم يتهياً لها تأصل وترعرع في هذه التربة الجديدة . ولقد عزَّ على الأب إجناتى أن يعقل أنه من تحت هذه الحشائش هنا ، وعلى بعد بضعة أشبار منه ، ترقد فيرا . وبدا له أن تدانى الشُّقَّة إلى هذا الحد أمر غير معقول . وإن نفسه ليخامرها من ذلك حيرة وتوجس غريب . فتلك التى تعود التفكير فيها على أنها طويت في ظلام الأبدية السحيق طيَّ الأبد ، كيف تكون هنا قريبة ؟ وإنه لعسير على الفهم أن تكون مع هذا القرب كله قد غابت عن الوجود وأنها لن تعود !

وخيل إلى الأب إجناتى أنه لو نبس بكلمة ، بالكلمة التى يكاد يحسها على شفّتيه ، أو أنه لو أوماً بإشارة ، لأقبلت عليه من القبر ، ووقفت أمامه ممشوقة القد جميلةً كعهده بها . ثم إنها لا تقوم وحدها ، بل إن الموتى أجمعين الذين نحسّ بهم ونرتاع من رهبة صمتهم وبرّده ، كل هؤلاء أيضاً يقومون وخلع الأب إجناتى قبعته السوداء العريضة الحاشية ، ومسح بيده على ذوائبه المشعّثة ، وهمس منادياً :

« فيرا ! »

ثم أوجس أن يكون بمسمعٍ منه غريب ، فاعتلى الضريح وتطلّع من فوق الصليبان . ولم يكن على القرب أحد ، فأعاد النداء رافعاً صوته :

« فيرا ! »



وكان صوته صوت الأب إجناتى المعهود من قديمٍ جافاً آمراً ، فكان عجبياً أن نداءً بهذه القوة يبقى بغير جواب !

« فيرا ! »

ومضى الصوت ينادى عالياً ملحاً . فلما أن سكت لحظة ، خيل للأب إجناتى أن جواباً غامضاً دوّى من تحت أطباق الثرى . فتلفت حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسلٍ لحيمته عن أذنيه وأصقهما على المدر الخشوشن الشائك فوق القبر ، ونادى :

« فيرا ! تكلمى ! »

فأحس الأب إجناتى وهو فزعٌ أن شيئاً له برودة القبر قد نفذ إلى أذنه وجمد له عقله ، وأن فيرا تسكمت — ولكن كلامها هو الصمت الطويل نفسه . وظل الصمت يزيد روعةً وهولاً . ولما أن اجتذب الأب إجناتى رأسه عن الأرض ، ووجهه شاحب كوجه الميت . خيّل إليه كأن الهواء يهتز وينبض بصمتٍ ذى صدغى مرنان ، وكأن ريحاً عاتية ثارت على ذاك العيلم الخوف . لقد أخذ الصمتُ بكظمه وأزهق أنفاسه ، وجعلت موجاته الثلجية تندفع فى رأسه جيئةً وذهاباً فيقف لها شعره أشعث مستطاراً ، ثم تتدفع فى صدره وتتكسر عليه فيئن ويتأوه من وقع صدماتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص يقلّب الحاظاً عصبية خاطفة من ناحية لأخرى ، ثم قام متحاملاً فى اتئادٍ وبطء ، وجاهد أشد الجهد وأنكاه ليرفع قامته ويرد إلى

بدنه المرتجف مشية الكبرياء المعهودة . وقد أفلح بعد لأي ، وأخذ ينفذ التراب عن ركبتيه متمهلاً متروياً ، ولبس القبعة ، ورسم إشارة الصليب ثلاثاً على القبر ، ثم دلف بخطوات متزنة ثابتة . على أنه مع ذلك لم يكن ليتبين وجه الطريق . لقد تنكرت عليه معالم المدفن وهو العليم بها واختلطت عليه ، فضل السبيل .

وعند مفترق المسالك وقف جامداً في مكانه يضحك :

« ضللتُ السبيل ! »

وطالت وقفته برهة ، ثم عرج من غير تفكير إلى يساره . ذلك أنه ما كان ليطيع الوقوف هنا جامداً ينتظر . لقد انحدر إلى اليسار ، وتبعه الصمتُ على الأثر . إن الصمت في أثره ، يخرج من اللحد المعشوشبة ، وتتنفس عنه الصلبانُ الداكنة المتجهمة ، ويتصاعد هبواتٍ دقيقة خائفة من الأرض المتشعبة برمم الموتى . والأب إجناتى يضاعف خطاه مسرعاً . لقد سدر بصره وذهل عن نفسه ، فهو يطوف في المسالك بعينها المرة بعد الأخرى ، واثباً فوق القبور ، متعتراً بالحواجز ، متشبهاً بالأكاليل وهي من صفيح شائك الأطراف مكسوٍ فيتمزق قماشها الرقيق الناعم في يديه . إنه ذاهل لا يلوى إلا على شيء واحد : الخروج من هذا المكان . فهو يندفع من ناحية إلى أخرى ، في كل صوب . وأخيراً انطلق يعدو في سكون ، شبحاً مديد القامة ، لا تسكاد تتعرفه في بُرنسه الخافق وراءه ، وشعره المتهدل مرسلٌ في الهواء .



إن رؤية ميتٍ قائمٍ من القبر لأخفَّ هولاً من ملاقة هذا الرجل طالعاً عليك بمنظره الأشعث راكضاً ، واثباً ، ملوحاً بذراعيه ، تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها ، وتسمع حشجرة أنفاسه تتدافع في لغط أجشٍّ من فيه الفاجر .

وانتهى الأب إجناتى وهو فى أقصى سرعته إلى الرحبة الصغيرة التى تقوم كنيسة المدفن فى طرفها متظامنةً مخصصة . وكان على المقعد الطويل عند مدخلها شيخٌ مهوَّم يلوح كالخاج من بعيد ، وإلى مقربة منه امرأتان من العجائز المتسولات فى عراقٍ وشجار تتلاحيان وتباهلان .

ولما أن بلغ الأب إجناتى منزله ، كان الليل قد دجا والمصباح قد أسرج فى غرفة أولجا استبانفنا . فأقبل عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته الممزقة المتربة ، وترامى على أقدام زوجته راكعاً وهتف منتحباً :

« أيتها الأم — أولجا — رحماك ، رقى لحالى ، أكاد أفقد صوابى »

وضرب حافة المائدة برأسه وارتفع له عويلٌ صاخبٌ وجيعٌ ، شأن الكظيم ينتحب لأول مرة . ثم رفع رأسه وهو على يقينٍ جازمٍ من وشك وقوع معجزة بعد ذلك ، فنتكلم زوجته وترقى لحاله :

« يا زوجتى العزيزة »

وأقبل عليها بكل جسمه الضخم ضارِعاً إليها مستعظفاً إياها . فالتقى

بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين . ولم يكن فيهما رحمة ولا نقمة .  
أو قد صفحت عنه زوجته ورقت لحاله ؟ ولكن عينيها لا رحمة فيهما ولا  
مغفرة . إنهما على حالهما ، خرساوان صامتتان .



والبيت كله موحشٌ ، صامت .





# العضاض

أو

## حياة كلب

« للروائي الروسي ليونيد أندرييف »

— ١ —

ليس له صاحب ينتمى إليه ، ولا اسم يتسمى به . ولا يدرى أحدٌ في القرية أين يقضى الشتاء الطويل المتساقط الصقيع ، ولا كيف يجد قوته . وكانت كلاب المنازل تطرده من أكوأخها الدفئة . وهى وإن تكن مثله جائعةً إلا أنها معتزةٌ شديدة البأس عليه لشعورها بالانتساب إلى بيتٍ من البيوت . وإذا هو طَلَعَ إلى قارعة الطريق العام بدافع من سعار الجوع أو حاجة الطبع إلى المعاشرة ، رجمه الصبيان بالحجارة وناوشوه بالعصى ، واعترضه الفتيان بالزياط والتهليل أو بالصفيراحاد يصبك الآذان ، فينصلتُ يمرقُ من ناحية إلى أخرى ، مضطرب الحواس من وهلةٍ وذعر ، متعثراً بالأسوار وأرجل السابلة ، ويعدو مسرعاً حتى آخر الطريق ، فيختبئ في موضعٍ لا يعرفه سواه . وهنا يلحق أعضاءه المرضوضة وجراحه ، ويحشد في وحدته الهول والضغينة في نفسه .

لم يحدث قط أن أحداً رثى له ومسح عليه ، غير مرة واحدة . وكان  
الماسح المشفق فلاحاً مدمناً عائداً من الحانة . وهو وقتئذ جأش العاطفة كعادة  
السكرانى يحب كل الأشياء ، ويشفق على كل الأحياء ، ويغمغم كلاماً  
عن أهل الخير ومبلغ إيمانه بأهل الخير . ولقد أخذته الشفقة حتى على هذا  
الكلب المستقبح القذر الذى اتفق أن وقعت عليه عينه السكرى التى  
تعشو إلى غير وجهةٍ وتتطلع من غير قصد ، وناداه « يا كليب » - وهو  
اسم يصح إطلاقه على عامة الكلاب - « يا كليب ، تعال لا تخف »  
وكان كليب شديد الرغبة فى أن يُقبل عليه فجعل يبصبص بذنبه ،  
ولكنه كان حائراً فى أمره لا يستطيع إمضاء نيةٍ والإجماع على عزم .  
وربّت الفلاح بيده على ركبته وردد يطمئنه :

« هلم ، وبعدي يا أبله . والله لست بمؤذيك »

وبينما الكلب المتردد يرعص ذنبه إرعاصاً أنشط حركةً ومراحاً ويقرب  
بخطوات متسحبة قصيرة ، إذا السكران قد تغير خاطره وتبدل مزاجه .  
لقد ذكر الساعة كل الشتم والهوان الذى ناله « من أهل الخير » ، فهاج  
هائجاً وثارت به ضغينة بليدة . فلما أن استلقى كليب عند قدميه متحجباً  
متمرعاً رفسه فى جنبه بمقدّم حذائه رفسة المغلول وصاح به :

« إليك عنى ، يا قذر . فيم أنت آت ! »

وراح الكلب يئن دهشةً وخزيّاً أكثر منه ألماً للضرب . ومضى  
السكران يترنح إلى داره فأشبع زوجته ضرباً مبرحاً ومزق منديلاً للعنق



جديداً كان اشتراه لها هدية في الأسبوع الغابر .

من ذلك الحين لم يعد يطمئن الكلبُ إلى نية الراغبين في ملاطفته  
والمسح عليه . فهو إما واضعٌ ذيله بين ساقيه ومنفلتٌ ينجو بنفسه ، أو هو  
متهيج في بعض الأحيان حَرْدٌ يتهجم عليهم محاولاً عقْرهم حتى يفلحوا  
في طرده رمياً بالحجارة وتلويحاً بالعصى .

ولقد انتبذ لنفسه مسكناً في هذا الشتاء تحت شرفة واسعة من دار غير  
مسكونة لا حارس عليها يتعهد بها ، فتولى هو حراستها بغير أجر . وكان إذا  
جنَّ الليل هام في الطرقات يركض وينبح حتى يبحَّ صوته ، ثم لا يزال  
بعد أن يأوى إلى مشواه ويحتم في عقره يزجر ويزجر برهةً غير قصيرة  
زجراً المحنق الغاضب ، إلا أن وراء غضبه هذا يبين شيئاً من الرضى  
عن النفس بل الاعتزاز بالنفس .

ودلفتُ ليالى الشتاء بطيئةً . والدار خاوية ، ونوافذها المظلمة شاخصةٌ  
في عبوس إلى الحديقة الهامدة المسجاة بالثلوج . وفي هذه النوافذ كانت  
تشبُّ أحيانا أنوارُ زرقاء ، وأحيانا أخرى كان ينعكس على ألواحها شهابٌ  
ساقط ، أو يلقي عليها هلال السماء الأعجم شعاعه المتسلل المتعثر .

## — ٢ —

وأقبل الربيع ، وأصبحت الدار الخالية الصامتة متجاوبة الأصداء  
بالكلام الصاخب وقعقة العجلات ودبدبة أناسٍ ينقلون أشياء ثقيلة . لقد  
قدم أصحابُ الدار من المدينة ، وهم رهط بأجمعه من المحبورين المفاريح من

شقى الأعمار : مكتملين ومحتلمين وصبية . وكلهم ثملٌ بالهواء والدفع والنور . فالبعض هاتفٌ متصايح والبعض رافعٌ عقيرته بالغناء والبعض مستضحكٌ بالنعمة النسوية الرخيمة .

وتعرّف الكلب أوّل ما تعرّف إلى غادة مليحة انحدرت إلى الحديقة فى ثوب قرنفلى من ثياب الطالبات منسجم الهندام ، وهى تائقةٌ فى لهف وشغف إلى ضمّ كل ما تراه واحتضانه . وكانت ترمق بمجامع نظرها السماء الصافية وأفنان الكرز المشربة بالاحمرار . وسرعان ما استلقت على الحشائش ووجهها إلى الشمس المتقدمة . ثم عادت فنهضت بغتةً مثلما رقدت واهتزت ارتياحاً وطرباً ، وقبّلت بشفتيها النديتين نسيم الربيع ، وقالت ، وهى جادةٌ تعنى كل حرف مما تقول :

« يا لله ! إنه لشيء بهيج »

قالت ذلك ثم أدارت ظهرها فجأة . وفى هذه اللحظة كان الكلب قد اقترب منها من غير أن يحدث حساً ، وأنشأ للحال أنيابه فى ذيل ثوبها المرسل مهتاجاً فزقه ، ثم غاب من غير حسٍ كذلك فى أدغال الأعناب الكثيفة المتهدلة .

فصرخت الفتاة : « آه ، بئس الكلب ! » وولّت من الحديقة وظل صوته المضطرب فترةً طويلة يُسمع وهى تردد : « يا أماء ! يا أولاد لا تذهبوا إلى الحديقة : إن فيها كلباً ، وأى كلب ! هائل من الكلاب مفترس ! » .



ولما أن دجا الليل تسَلَّلَ الكلبُ إلى الدار وقد نام أهلوها . وأوى  
دون أن يسمع له أحد ركزاً إلى مرقدِه تحت الشرفة الواسعة ، وباتت  
الدار — بعد أن كانت مهجورة صفصفاً — يستروح منها المستروحُ وجود  
الناس ، ويسرى مع النسيم من نوافذها المفتوحة ترديدُ أنفاسهم في الرقاد  
هادئةً رقيقة . هؤلاء هم القوم نيامٌ لا حول لهم ولا قدرة ، وقد خرجوا عما  
كان لهم من بطشٍ وسطوة ، وهذا الكلب هنالك ... وقد أقام عليهم من  
نفسه بالليل حارساً شديد الغيرة ، فكان ينام وإحدى عينيه صاحبة ، وكلما  
اختلج في الشجر حفيفٌ أطلَّ برأسه وعينه شاخصتان لا تطرفان وفيهما  
بريقٌ فسفوري . وكانت الأصداء المشرية للمخاوف كثيرة في هذه الليلة  
الجياشة الحساسة من ليالى الربيع . فهنا خَشَخَشَ في الحشائش شيءٌ صغير  
غير منظور ، وهفا على مقربة من أنف الكلب اللامع . وهناك تقصفتُ  
بعض الأفنان الجافة من العام الغابر تحت أقدام الطيور المهوَّمة ،  
وفي الطريق المجاور تَدْرُجُ عربةٌ ثم تصرصر عجلات نقلٍ مثقلة موقرة .  
ولقد تَضَوَّعَ من كل فجٍّ في الهواء الساجي شذا صمغ الصنوبر أرجا منعشاً  
يستهوئ السارى إلى الإيغال في جنح هذا الليل الأضحيان .

وكان أصحاب الدار القادمون من أهل المعروف والخير ، فكيف بهم  
الآن وهم عن المدن بعيدون ، ينشقون نقي الهواء ، وحيثما ولّوا بصرهم  
يبصرون خضرةً ناضرة وزرقة صافية وأماناً شاملاً . يدبُّ فيهم شعاع  
الشمس دفئاً وحرارةً ، ثم يصدر عنهم مَرَحاً وأريحية وعطفاً على كل شيء



حتى . ولقد أرادوا في بادئ الأمر طرد الكلب خشيةً أذاه ، بل أطلقوا النار عليه من مسدس حين عيل صبرهم وضاق ذرعهم به وهو مصرٌّ على البقاء يأبى النزوح . غير أنهم بعد ذلك ألفوا نباحه في الليل ، بل انقلبوا يذكرونه في الصباح أحياناً متسائلين : « ولكن ، أين صاحبنا العضاض ؟ » ولصق به هذا اللقب الجديد وصارت تقع أبصارهم في بعض الأحيان حتى بالنهار بين الشجيرات المتواشجة على خياله المتواري ، ولكنه سرعان ما كان ينبطح على الأرض إذا ما بدت حركة من يد أحدهم يرمى إليه بكسرة من الخبز — كأنها حجرٌ يرمى به لا خبز . ولم يعتم القوم أن ألفوا العضاض كبيرهم وصغيرهم ، وصاروا يلقبونه « كلبنا » ويتفكهون بال نوادر يرتجلونها عن سبب إجفاله وخوفه من غير ما موجب . على أن العضاض أخذ يقتضب كل يوم خطوةً بعد خطوة من الشقة التي تباعد بينه وبينهم ، وقد أنس إلى مطالع وجوههم واصطنع عاداتهم . فكان إذا أزفت ساعة الغداء شوهد واقفاً بين الشجيرات يطرف بجفنيه وعليه سماء المسألة والسماح . وكانت الفتاة التلميذة هي نفسها التي سكنت من روع الكلب وطامت من نفوره متناسيةً سابق عدوانه ، وهي التي أدخلته آخر الأمر في هذا الوسط السعيد بين قوما الوادعين الطروبين .

فكانت تناديه : « تعال هنا ، يا عضاض ، أيها الكلب الطيب ، تعال . أتحب السكر ؟ إني معطيتك قطعة . هلم إذن » وكان العضاض محجماً عن التقدم . هو خائف يتوجس . فتربت الفتاة



على ركبتيها ، وتدنو من الكلب وهي تناغيه بكل ما في الصوت الحلو  
والوجه المليح من حنان ولطف . على أنها هي أيضا كانت خائفة ولقد  
همّ الكلب بالعض فجأة ، ولكنها لم تكن تكفّ عن مناداته وتأنيسه :  
« إني بك جدّ مشغوفة يا عضاض ، يا عزيزي . ما أبدع أنفك الصغير ،  
وما أبلغ معنى عينيك . ألا تطمئن إليّ ، يا جنس العضاضين ؟ »

ورفعت « ليليا » حاجبيها . وكان أنفها الدقيق غايةً في الحسن وعيناها  
غايةً في حلاوة المعنى ، حتى لقد أنصفت الشمس إذ أكبّت على وجهها  
الصغير الغض الغرير المحاسن تغشاه بالقبيل الحار حتى توهجت وجنتها .

واستلقى العضاض على ظهره للمرة الثانية في حياته وأطبق جفنيه وهو  
لا يدرى على وجه التحقيق إن كان نصيبه ركلةً زاجرةً أو مسحةً عاطفة  
ملاطفة . ولكن المسح كان في هذه المرة نصيبه . فإن كفتين رخصتين  
صغيرتين لمستا في حذر وترددٍ هامته الكثيفة الوبر . وكأنما كان هذا إيذاناً  
بما أصبح لها عليه من سلطان غير منكور ، فهي قد مضت تجرى راحتها  
في طلاقةٍ واجترأ على سائر جسمه الأشعر دعكاً ومسحاً وتجميشاً  
وصاحت ليليا : « يا أماه ، يا أولاد ، تعالوا انظروا ، هأنذا أمسح

بيدي على العضاض »

وأقبل الأولاد راكضين ، متصايحين ، عاليةً أصواتهم ، وهم في توفّرهم  
ولأنهم كأنهم قطرات الزئبق الرجراج . فقع العضاض مكانه في خشية  
الذعور وانتظار المستسلم ، علماً منه بأنه لو ضربه أحدهم الآن لما استطاع

وهو على هذه الحال أن يُنشب في لحم المسىء أنيابه المظرورة . لقد استلّت الفتاة غله المشبوب الدفين . ولما أن جعلوا أجمعين يتسابقون إلى مداعبته وملاطفته ، لبث زمناً لا يتمالك نفسه من الانتفاض لكل لمسة من أكف ملاطفه ، ويجد لهذا التجميش الذي لم يسبق له به عهد مساً موجعاً كأنه وقع الضرب

— ٣ —

وانبسطت من « العضاض » نفسه الكلبية كلها . فقد أصبح له الآن اسم يُقبل عند سماعه مندفعاً من أقصى خائل الحديقة . وهو الآن ينتمى إلى ناسٍ ويقوم على خدمتهم . وماذا يحتاجه الكلب أكثر من هذا ليكون سعيداً !

وكان قد تعودّ القصد والقناعة بما أخذته به سنوات الجوع والتشرد ، فهو بعد قليل الأكل . ولكن هذا القليل أبدله حتى لتتعذر معرفته على عارفيه . فهذا رداء فروته سابغٌ طويل وقد كان من قبلُ خصلاتٍ كزّة متهدلة كشعر الثعلب على ظهره وفوق بطنه ، وكانت على الدوام يعلوها الطين فأصبحت اليوم نظيفة ملساء كالقطيفة . ثم هو اليوم إذا هرول إلى الباب الكبير — ولم يكن له ما يفعل خيرٌ من هذا — فوقف هناك بالصيّد متطلعاً يصعد نظره إلى الطريق ويصوبه وعليه سماء الوقار ، لم يقم بخاطر أحدٍ أن يعاكسه أو يحصبه بحجر .

ولكن هذا الاعتزاز وهذه الدعة كان لا يتملّى بهما إلا فيما بينه وبين



نفسه . وذلك أن خوفه لما يتبخّر كله من حرارة الملاطفة . فكما طلع  
أناسٌ أو دنوا منه اختفى متوقفاً منهم الضرب والأذى . وما برحت بعد  
طول المدة تقع عنده كلُّ ملاطفةٍ موقع المفاجئة والعجب بحيث لا يستطيع  
فهمها ولا مجاوبتها . إنه لا يدرى كيف يتلقى الملاطفة . إن غيره من الكلاب  
ليقف على رجلبيه الخلفيتين ويتمشى قائماً ، بل ويتسم مترجماً بذلك عن  
مشاعره ، أما هو فلا يدرى إلى ذلك سبيلاً .

والشئ الوحيد الذى يستطيعه « العضاض » هو أن يتقلب على ظهره  
ويطبق جفنيه ويُسْمَع له هريزٌ رقيق . غير أن هذا لم يكن كافياً . إنه  
لا يفي بالاعراب عن ابتهاجه وشكره ومحبته . فاذا به يصنع شيئاً كأنه إلهام  
أُلْقِي إليه وفتُح به عليه ، ولعله رأى بعض الكلاب تصنعه ثم نسيه  
منذ ذلك الحين . فكان يثب منقلباً فى الهواء المرة بعد الأخرى فى سخافةٍ  
ولحظة ، أو هو يدور وراء ذيله ، ولم يكن جسمه كالعهد به على الدوام ناشط  
الحركة لين الأعطاف ، فلقد أصبح أخشب متيبّس الأوصال وصار لعبه  
مشاراً للضحك ومدعاة للزراية .

فلا غرو تهتف ليليا وهى تشهق بالضحك :

« يا أماه ! يا أولاد ! انظروا ، العضاض يلعب لعب المسارح . هيه

يا عضاض ! أعد مرةً أخرى . ومرةً أخرى . هو ذاك »

فيجتمعون حوله يضحكون . والعضاض دائبٌ على دورانه وراء ذيله ،  
وعلى انقلابه فى الهواء ووقوعه . والكل لاهون لا يلتفتون إلى ما فى عينيه

من توسِّل غريب . لقد كانوا قبلُ يصيِّحون به ويزعقونه لينظروا فرقه  
وخوفه اليأس ، وهم اليوم يلاطفونه متعمدين ليشيروا فيه فورة الحب  
المضحكة في مظاهرها السخية الخرقاء . وما كانت تمضي ساعة إلا  
ويهتف أحد الفتيان :

« والآن يا عزيزي العضاض ، العب لعب المسارح »

فيتلوَّى العضاض حول نفسه ويثب منقلباً في الهواء ويقع بين الطرب  
والضحك الذي لا يغالب . وكانوا يمتدحونه في وجهه ومن وراء ظهره  
ولا يأسفون إلا على شيء واحد ، وهو أنه لا يعرض ألاعيبه على الغرباء  
القادمين لزيارة أهل المنزل ، بل ينفلت لفوره إلى الحديقة ويختبئ تحت  
الشرفة .

ولم يلبث العضاض أن تعود شيئاً فشيئاً أن يعفى نفسه من تكلف  
الطلب لطعامه ، إذ كان الطباخ يوافيه في الوقت المقرر بالفضلات والعظام  
وهو راقد في دعةٍ وطمأنينة في مكانه تحت الشرفة . بل كان القوم هم الذين  
ينشدونه ويسعون إليه لكي يلاطفوه . ولقد اكتنز لحمه وثقل ، فلم يكن  
يبرح الدار إلا في القليل النادر . وكان إذا دعت الصبية للذهاب معهم إلى  
الغابة يرعص بذيله مراوغاً ويغيب عن العيان . فأما نباحه في الليل فقد  
ظل كعهده يقظاً جهوريًّا .

— ٤ —

وأخذ الخريف يُشيع في الشجر ألوانه المشبوبة المصفرة ، وطفقت السماء  
تبكي بوابلٍ منهمر . فاذا المربع تقفر من الناس وتهمد حركتها كأنها



الشموع أُلحَّ عليها القَطْرُ الهاطل والريح الهوجاء فأخذها الواحدة بعد الأخرى وتساءلت ليليا حائرة : « ماذا نحن صانعون بالعضاض » . وكانت جالسة وذراعاها معقودتان حول ركبتيها تتطلع إلى خارج النافذة حزينة والمطر يسحّ ملتمع القطر .

فقالت أمها : « أيتها جلسة تجلسينها يا ليليا ! ما هكذا يكون الجلوس » ثم أردفت : « لا مندوحة من ترك العضاض . مسكين ! » فقالت ليليا في بطاء وأناة : « شيء . . . . . يؤسف له » وراجعتها الأم : « ولكن ما العمل ؟ لا فناء في دارنا بالمدينة . وبقاؤه في داخلها غير ممكن . هذا الأمر يجب أن تفهميه جيداً »

فرددت ليليا وهي تكاد تجهش بالبكاء : « إنه . . . شيء . . . . . يؤسف له . واخسارتاه ! » ثم ارتفع حاجباها الفاحمان كأنهما جناحا غُدا ف ، وتقلّص أنفها الصغير اللطيف بهيئة أسيفة ، حين قالت أمها مواسية :

« لقد عرض على الكلابون جرّوا منذ حين ، وهم يقولون إنه أصيل دجون للبيوت . . أفهمت ؟ أما هذا فكلب أفنية وأحواش » فردد ليليا : « واخسارتاه » ولكنها ظلت حابسة دمعها .

ووفدت على البيت مرة أخرى وجوه غريبة ، وصرصرت عربات النقل ، وأنت أرضُ الغرف الخشبية تحت وقع أقدام ثقيلة — ولكن الكلام كان قليلا هذه المرة ، ولا ضحك البتة . وأجفل العضاض من هؤلاء

الأغراب ، وتوجس في نفسه شراً وتولّى إلى أقصى الحديقة ، وجعل يمد  
بصره من هناك خلال الأفنان المتصوّحة الناحلة ، إلى هذا الركن من الشرفة  
المنكشف لناظره يرمق الأشخاص ذوي القمصان الحمراء يذهبون  
ويجيئون فوقها .

وإذا بليلىا تهتف وقد خرجت من الدار : « أنت هنا ، يا عضاضى  
المسكين ! » وكانت متجهزة للرحيل مرتديةً سترة سوداء على ثوبها القرنفل  
الذى سبق للعضاض أن مزق من ذيله مِرزة .

« تعال ! »

وخرج الاثنان إلى الطريق . وظل المطر متقطعاً يهيم ويحتبس .  
والفضاء ما بين السماء والأرض المستوحلة متلبّداً بالسحب السارية المتدافعة .  
وإن المتطلع إليها لا يخطئ غلطها وتراكبها ، فهي لكثرة امتلائها بالماء مطبقةٌ  
لا يرى فيها خللاً ولا فتق يذر منه قرن الشمس ، بل الشمس منها وراء  
سدٍ منيع .

وكانت تنبسط إلى يسار الطريق حقولٌ داكنة لا زرع فيها إلا بقايا  
الحصاد وأعقاب العيدان ، ولا يقف النظر إلا أشجارٌ وشجيرات قصار  
غير متساوية في بقاع متفرقة عند الأفق القريب المترأى بربواته المتظامنة  
وكتبانه المتعرجة . وإلى الأمام على مسافة غير بعيدة يقع حدُّ القرية ويقوم  
بابها ، وثمة إلى جانبه حانوت خمار سقّقه الأحمر من حديد ، وعنده رهط  
من الناس يعا كسون « يوشع » مخبول القرية .



ويقول الخبول بصوت أحنّ وهو يمْطُ كلامه : « أعطونا درهما »  
فتجاوبه أصواتٌ شاذغة هازئة في نفس واحد :  
« هلا احتطبت لنا خشباً ؟ »

فيقدفهم يوشع بالسباب مقدعاً مستهتراً فترتفع من هؤلاء قهقهة فيها  
صخبٌ بغير سرور

ونفذ من الغيم المطبق شعاعٌ من الشمس أصفر سقيمٌ حتى كأن الشمس  
أدنفها داء عياء لا يرجى منه شفاء ، واتسعت مع الضوء رقعة النظر في  
هذه المشاهد من الخريف المدجن ، وزادت مجاليه وحشةً على وحشة  
وجرت على شفتي ليلى كالغذب السلسال هذه الكلمات : « إني آسفة  
يا عضاض ! » ثم مضت لاحقةً بذويها لا تلوى على شيء ، ولم تذكر إلا  
وهي تستقل القطار أنها لم تودّع العضاض

وأما العضاض فما زال يجري في إثر الظاعنين حتى اللحظة ، ثم قفل  
راجعاً إلى البيت الخلوى مبتلاً موحلاً ، وهنا قام بلعبة أخرى جديدة ،  
ولكنها ما لها من شاهد ، فهذا هو للمرة الأولى يمشي إلى الشرفة ، ويقف  
على رجليه الخلفيتين ، ويتطلع إلى داخلها من الباب الزجاجي ، بل يحمشه  
بأظفاره طلباً لفتحه . ولكن الغرف كلها خاوية ولا من يجيب

وانهمر المطر كأفواه القرب ، وأخذ ليلُ الخريف الطويل يقبل من  
جميع الأرجاء نحيماً مريحاً سدوله ، فامتلاً البيتُ الخلوى المقفر بعتمته المعجلة  
الثقيلة الظلّ . وكان الظلام كأنما ينساب من الشجيرات ويفيض مع المطر من

السما المتجهمة . وكانت الشرفة بعد إذ نزعوا عنها الظلة تبدو فلاة بلقعا  
من معامى الأرض ومجاهلها . ولقد كان النهار والظلمة فوقها وقتئذ مشتبهين  
فى صراعٍ طال برهة ، وظهرت فى غبسه الكابى آثارُ الأقدام فى الوحل  
محزنة مشجية . ثم سرعان ما غلب النهار على أمره  
وخيم الليل .

ولما لم يبق من شك فى أن الليل قد أناخ وألقى بجِرائه ، أخذ الكلبُ  
ينبح ويردد النباح كمثل النواح ، وكان نباحه الجهير الحاد كالأس يتخلل  
صوتَ الوبل فى انهماره الرتيب الملحّ الكئيب ، فيشق الظلامَ وتحمل  
الريحُ أصداؤه المضمحلة إلى الحقول الجرداء المحلولة

وظل الكلب ينبح — دائباً ، ملحجاً ، مستئيئساً ، صابراً — وإنه  
ليخيل إلى السارى الذى يسمع فى الليل نباحه أن الليل الحالك نفسه هو  
الذى يئنّ ويحنّ إلى النهار ، ويود السارى لو أنه قبع فى داره بقرب زوجته  
يصطليان دفء الموقدة

وظل الكلب ينبح





## القصر المهجور

« للروائي الفرنسي أونوريه دي بلزاك »

على مسيرة مائة خطوة من مدينة فندوم ، على ضفاف اللوار ، يقوم قصرٌ قديمٌ داكن ، شاهق السماء ، مفردٌ وحده ، وقد شأهت حديقته ، واستوحشت شجيراته ، وكلحت جدرانها ، وتعفرت نوافذه وأبوابه ، وخيم عليه سكونٌ فاجعٌ تحسّ النفس أن وراءه سرّاً . وقد علم كاتبُ هذه السطور من خادمة في نزلٍ قريب حكاية أهل هذا القصر ، وكانت وصيفة عندهم وقد حلّما نزوح السيد إلى غير رجعة وموت السيدة من بعده من أمانة السر التي ظلمت على التزامها سنوات طوالا .

وهذا ما حكته بعد اختصاره ، والسلوك به إلى ناحية الإيجاز واقتضاب مقدماته ، وقصره على ما تنجلي به خافية الأمر ويرتفع به جانب السر : كان الخدع المخصص في القصر للكونتس دي ميريه في الطابق الأرضي ، وكانت تلحق به مقصورةٌ صغرى طولها أربع أقدام متدخلة في الحائط ، تتخذها السيدة خزانةً لأثوابها . وكانت الكونتس دي ميريه في ذلك الحين قد ألفت بها من ثلاثة أشهر وعكةً شديدة نقضى بأن تستقل بهذه الحجرة وأن يدعها الزوج وحدها ، فكان يرقد في حجرة بالطابق الأول .

ولقد شاءت مصادفة من تلك المصادفات التي لا ضابط لها في التقدير  
والحسبان ، أن يعود الكونت ذات ليلة متأخراً عن مألوف عاداته من  
النادى الذى يرتاده لمطالعة الصحف والحديث فى السياسة . وكانت زوجته  
تحسبه قد عاد فى مواعده وأنه فى مضجعه مستغرق فى النوم . ولكن أخبار  
الحرب كانت مثار نقاشٍ شديد فى النادى تلك الليلة . وكذلك كان شوط  
البليارد هذه المرة حامى الوطيس وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ  
جسيم فى الريف حيث الناس أجمعون مدخرون للمال جامعون ، وحيث  
الطبائع مكفوفة عن الغلاء ملتزمةٌ حدود القصد الحميد — ولعل فى هذا  
مصدراً للسعادة الحققة لا يحفل به الباريسيون . وكان المسمو دى ميريه منذ  
حين يقنع بسؤال الوصيفة روزالى عما إذا كانت السيدة دى ميريه أوت  
إلى فراشها ، فترد الوصيفة على سؤاله بالإيجاب دائماً ، فيبادر إلى حجراته  
بسلامة الطوية التي تورثها العادة والثقة . ولكنه فى هذه الليلة بداله أن  
يعرج على زوجته يحدثها بما لاقى من سوء حظ ، ولعله قام بنفسه أيضاً التماس  
العزاء فى قربها . فلقد كانت على العشاء غنجة الزينة متبرجة ، فحدث  
نفسه وهو عائد من النادى إلى البيت فى أنها عوفيت وصحّ بدنها وكيف أنها  
زادت على النقاهاة حسناً . ولقد فطن إلى ذلك الليلة فقط كما هو العهد  
بالأزواج يفظنون إلى كل شىء متأخرين . فها هو ذا لا يدعو روزالى  
التي كانت فى تلك اللحظة مشغولة فى المطبخ بمتابعة الطاهية والحوذى  
يلعبان بالورق شوطاً عسيراً ، بل يأخذ سمته تَوّاً إلى مخدع امرأته على ضوء



فانوسه الذى وضعه على الدرجة الأولى من السلم . وكانت خطوته — ومن السهل معرفتها — تدوى مرددة الصدى تحت حنايا الدهليز . فلما أن أدار مفتاح حجرة زوجته ، خيل إليه أنه يسمع باب المقصورة الداخلية المتخذة خزانةً للثياب يقفل . ولكنه حين دخل ألقي امرأته وحدها واقفة أمام الموقد ، فوق بنفسه فى بساطة أن وصيفتها روزالى فى المقصورة . بيد أن طائفاً من الشك طنّ فى أذنه طنين الجرس فأيقظ توجسه . فتطلع إلى امرأته ، فرأى فى عينها ما لا يدرك كنهه من البلبلة والاستيحاش .

وقالت : « لقد طال فى العودة تأخرُك » .

ولكن هذا الصوت الذى يعهده غايةً فى الصفاء ونهايةً فى الرقة بداله متغيراً بعض التغير . ولم يُحِر السيد دى ميريه جواباً إذ دخلت فى هذه اللحظة روزالى وكان دخولها من باب الحجرة لا المقصورة ، فوق ذلك عليه وقع الصاعقة . وجعل يتمشى جيئةً وذهاباً فى الغرفة متنقلاً من نافذة إلى أخرى ، بحركة رتيبةٍ واحدة ، مكتوف الذراعين .

وسأله امرأته فى وجلٍ وخشية ، وروزالى تعاونها على خلع ثيابها :  
« أوَ بلغك ما أحزنك ، أو بك ما تشكو منه ؟ »

فلم يخرج عن صمته .

والتفت السيدة دى ميريه إلى وصيفتها قائلة : « إذهبي أنت . سأعصب شعري بنفسي » .

لقد أوجستُ أمراً من مجرد التطلع إلى سياء زوجها ، فأرادت ألا يشهدا ثالث .

فلما أن ذهبت روزالى — أو على أصح القولين أوهمت أنها ذهبت ، إذ الواقع أنها وقفت فى الدهليز تتسمع — تقدم السيد دى ميريه فجلس قبالة زوجته ، وقال لها فى برود :

« سيدتى ، فى هذه المقصورة شخص ! »

فرمقت السيدة زوجها هادئة المظهر ، وأجابت فى بساطة :

« لا ، يا سيدى »

ولقد فجعتُ « لا » هذه ، وصدعت قلبه . فإنه لم يصدقها . ومع هذا فلم تبدُ له امرأته أخلص نقاء وأخشع تديناً منها فى هذه اللحظة . ونهض السيد دى ميريه يريد فتح المقصورة فأمسكت السيدة دى ميريه بيده ، ووقفته ، ونظرتُ إليه فى حزن وأسى ، وقالت له فى صوت شديد التأثر :

« فكرّ فى انقطاع ما بينى وبينك إذا أنت لم تجد أحداً »

وكان لوقفها حرمة وقار وطابع جلالٍ من وراء التصديق ردّاً على الزوج عميق التوقير والإجلال لها . فاستقرّ على عزيمة من تلك العزائم التى لولا ضيق الرقعة لضمنت البقاء وخلود الذكر .

قال : « كلا ، يا جوزفين ! لست فاعلاً ، وإلا افترقنا على الحالين فراقاً لا لقاء بعده . اسمعى لى ، إنى أعرف مبلغ نقاء سريرتك ، وأعرف



أن حياتك حياةً قديسة ، ولن يقوم بخلك أن تقتربى كبيرةً فيها  
هلاكُ نفسك »

فرفعت السيدة دى ميريه إلى زوجها نظرةً تائهة .  
ومضى الزوج يقول : « خذى ، هذا صليبك . فاقسمى لى أمام الله  
أن لا أحد هناك ، فانى إذ ذاك مصدقك وقابضٌ يدي عن فتح  
هذا الباب »

فتناولت السيدة دى ميريه الصليب وقالت : « أقسمت »  
فقال الزوج : « ارفعى صوتك وأعيدى القسم ( أقسم أمام الله أن  
لا أحد فى المقصورة ) »

فاعادت العبارة غير متلجلجة .  
فقال الزوج فى برود : « حسنا . . . »  
وبعد لحظة صمتٍ قال وهو يمعن النظر فى الصليب وكان من آبنوس  
محلى بالفضة بديع النقش للغاية :

« إن عندك تحفةً بديعة الشكل لم أكن أعهدا عندك »  
فأجابت : « لقد رأيتها عند ديفيقيه ، وكان اشتراها من راهب اسباني  
عند ما مرت بالبلدة جماعة الأسرى الأسبان فى السنة الماضية »  
فنبس السيد دى ميريه « آه ! » وأعاد الصليب إلى مناطه من المسار .  
ثم قرع الجرس . فلم تلبث روزالى أن دخلت ، وخف السيد دى ميريه  
إليها وأخذها إلى فرجة النافذة المطلة على الحديقة وهمس إليها :

« أنا أعلم أن جورنفلو راغبٌ في زواجك وأنه لم يمنعكما إلا الفاقة ، وقد صارحتِه أنك لن تكوني زوجته إلا حين يصبح مقدّم بنائين . . . إذن ، هيا التمسيه ، وقولي له أن يأتي إلى هنا ومعه مسجّته وسائر أدواته ، وحاذري أن يتنبه في بيته أحدٌ غيره . ولسوف يجاوز كسبه ما تشتهين . هيا ، وليكن خروجك من هنا خاصةً من غير ثرثرة ، وإلا . . . »

وقطب ما بين حاجبيه . وخرجت روزالى ، فاستدعاها إليه ثانية :  
« خذى ، دونك جوازُ مرورى » .

ثم صاح السيد دى ميريه بصوت راعدٍ مجلجل في الدهليز « جان ! »  
وكان جان حوزيه وأمين سرّه وموضع ثقته معاً ، فلما سمع النداء ترك شوط الورق وقَدِم على عجلٍ مليباً .

فابتدره سيده صائحاً : « هلموا للنوم جميعاً » وأوماً إليه بالدنو ثم همس إليه : « حين ينامون جميعاً ، حين ينامون ، أسمعُ أنت ! فانزل وأعلمنى »  
وكان السيد دى ميريه يُصدر أوامره دون أن تغيب عن ناظريه امرأته ، ثم عاد في سكون إلى قربها أمام المصطلى ، وجعل يحدثها بما جرى في شوط البليارد وبما دار من نقاشٍ بين المجتمعين في النادي . فلما أن رجعت روزالى وجدت السيد والسيدة يتجاذبان الحديث كأصفي ما يكون .  
وكان السيد في العهد الأخير قد أمر بالحجرات التى يتألف منها جناح الاستقبال في الدور الأرضى فجصّصت سقوفها . ولما كان الجصّ عزيز الوجود في البلدة ونقله يزيد كثيراً في نفقته فقد استورد منه السيد مقداراً



كبيراً لعلمه أنه واجد على الدوام كثيرين من المشتريين لما يتبقى منه .  
وهذه المناسبة القريبة هي التي أوحى إليه بالنية التي هو عاملٌ على إِمضائها .

وهمست روزالى : « سيدى ، جورنفلو موجود » .

فأجاب السيد رافعاً صوته : « ليدخل » .

وتغير وجه السيدة دى ميريه عند رؤيتها للبناء .

وقال الزوج : « يا جورنفلو ، اذهب وخذ قرميداً من الخزون ، واحمل  
منه ما يكفي لسدّ باب هذه المقصورة ، وعليك بالحص المتبقى عندى لدهان  
الجدار بعد ذلك » .

ثم اجتذب إلى ناحيته روزالى والعامل ، وقال هامساً : « اسمع لى  
يا جورنفلو . بعد فراغك تنام الليلة هنا . وفى صباح الغد يكون فى يدك  
جواز للرحيل إلى قطر أجنبى ، إلى بلد سوف أسميه لك . وسأعطيك  
ستمّة آلاف فرنك لرحلتك . وفى ذلك البلد تقيم عشر سنوات . فإذا لم  
يطب لك فيه المقام ، فلك أن تستوطن غيره ولكن فى القطر نفسه .  
وليكن مجازك عن طريق باريس حيث تنتظرنى ، وثمة أوقع لك صكاً  
بستمّة آلاف فرنك أخرى تكون حقاً لك بعد عودتك فى حال وفائك  
بشروط الصفقة التى بيننا . وفى لقاء هذا تطوى فى غور سرّك ما أنت  
فاعله الليلة هنا وتُشرح عليه صدرك . أما أنتِ يا روزالى ، فسأهبك عشرة  
آلاف فرنك لا أنقدها إياك إلا يوم عرسك ، وعلى أن تتزوجى جورنفلو .  
ولكن ، أمر زواجكما رهنٌ بالصمت والتزام الكتمان . وإلا ، فلا صداق »

وقد وافى الصائغ وكانت الحجرة قد تم إصلاح أمرها ولمّ شعثها .  
فسأله السيد : « قل لى ياديقفيه ! أو لم تشتّر صلبانا من الأسبان  
الذين مروا بالبلد ؟ » .

« لا ياسيدى » .

فقال السيد وهو يبادل امرأته نظرة النمر : « حسناً ! أشكرك »  
ثم التفت إلى خادمه الأمين وقال : « جان ! قل لهم من اليوم أن يقدموا  
الطعام لى فى حجرة السيدة . إنها مريضة ، ولن أدعها حتى تعافى »

ولبت السيد القاسى عشرين يوماً بجانب جوزفين زوجته . وكان فى الأيام  
الأولى كلما اضطرب حسٌ فى المقصورة المسدودة ، وهمّت جوزفين بالتوسل  
إليه من أجل الغريب المحتق ، لم يدعها تنبس بكلمة مما تهتم به مردداً  
على سمعها قولاً واحداً .

« لقد أقسمت على الصليب أن لا أحد هنا »





## أرملة

« للقصص الفرنسي جي دي موباسان »

كان ذلك في أوان الصيد في قصر بانفيل ، والخريف مطيرٌ حزين ،  
والأوراق الذابلة الحمرة منتشرة على أرض الغابة لا يسمع لها تقصفٌ تحت  
الأقدام ، بل تعطن في الطرقات بمدارج العجلات تحت شاييب الديم الهاطلة  
وكانت الغابة جرداء إلا قليلا ، تُشبه من الرطوبة بيت الاستحمام . فإذا  
أوغلت فيها تحت أفنان الدوح العالى يصفقه وابل المطر ، شملتك رائحة  
نخمة ، وهبوة بخارٍ من العشب الخضل والأرض المبتلة . وكان الصيادون  
يدبّون — حفاة الظهور — تحت هذا الفيض الهتون . والكلاب متجهمة  
ساهمة ، ذيلها مرسلٌ إلى الأرض وشعرها ملتصق بآطالها . والغانيات  
الصائدات في أثواب الصوف المفصلة على أعطافهن ، اللاصقة بأبدانهن وقد  
أشربها البلل . كان هؤلاء جميعاً يؤوبون كل مساء من الصيد أنضاء جسم  
وعقل معا .

وكانوا بعد العشاء يجتمعون في البهو الكبير إلى لعبة الورق من غير  
انبساط ولا لذة ، وللريح في الخارج هباتٌ مدوّيات تدفع في مصاريع الشبايك  
المعلقة ، وتبتدر دوارات الهواء المتقادمة العهد فوق الأبراج فإذا هي من  
الدوران كالخدروف المدوّم .

وأرادوا أن يسمروا بالحكايات على نحو ما يُروى في الكتب ، فلم يوفق  
أحدٌ إلى ابتداع حكاية مسلية . ومضى الصيادون يقصّون ما وقع لهم في أثناء  
صيدهم بالبنادق وتقتيلهم للأرانب . وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن  
ويتقصّين في ثناياها فلا يجدن خيالا كخيال شهرزاد يسعفنهن بحكايةٍ من  
أمثال حكايات ألف ليلة وليلة .

وكاد القوم أن تنقطع بهم أسبابُ الحديث ، إلا أن إحدى الغانيات  
كانت تعبت خالية البال بيد عمتها العجوز وهي عانسٌ لم تزوج ، فلحظت  
خاتما صغيراً من شعراتٍ شقراء كثيراً ما وقع ناظرُها عليه من غير أن  
تفكر لحظة فيه . فسألتها — وهي تديره في أصبع صاحبتة بلطفٍ —  
« ألا قلتِ لنا يا عمتي ما هذا الخاتم ؟ لكانه شعر غلامٍ يافع ... »

فاحمراً وجه العانس ثم اصفرّاً ، وأجابت بصوت متهدج : « إن الأمر  
محزن جداً ، محزن جداً ، حتى لست أحب فيه الكلام . وكل الذي  
في حياتي من شقاء فهذا مصدره . لقد كنت في غرارة الشباب وقتئذ .  
أن الذكري ما برحت تلوعني وترمضني حتى ليغلبني البكاء كلما خطرتُ  
في نفسي »

فتلهف القوم إلى سماع الخبر ، وأبت العمّة ذلك عليهم . فما زالوا بها  
حتى رضيت في آخر الأمر وأنشأت تقول :

( كثيراً ما سمعتموني أتحدّث عن أسرة سائيز ، وقد انقضت اليوم  
عن آخرها . ولقد عرفت الثلاثة الآخر من رجال هذا البيت . والثلاثة



ماتوا ميتةً واحدةً ، وهذه شعرات الأخير ، وكان في الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجل . لقد يبدو لكم الخبر غريباً . أليس كذلك ؟ ( بلى لقد كانوا معشراً عجباً من المجانين — إن شئت هذه التسمية — ولكنهم مجانين ظرفاء ، مجانين غرام . فهم جميعاً — أباً عن جد — ذوو عواطف عارمةٍ جامحة ، تدفعهم في صميم كيانهم كله دواعٍ لاتدافع إلى أبعد السباحات ، إلى التفاني المهوّس والغلواء في التحمس ، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم . وهذا الهيام منهم بمنزلة التدين الشديد في بعض النفوس . وشتان في الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة وبين أزيار النساء . وقد شاع بين ظهرائهم هذا الوصف « عاشق عشق آل سانتيز » . وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيّاهم . فما منهم إلا ذو خصل منسدلة على الجبين ولحية جعدة وعينين واسعتين ينفذ شعاعهما في نفسك فيمبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سبباً .

( وكان جدّ الغلام — الذي رأيتم في أصبعي تذكاره الوحيد — له مغامراتٌ عدة ومبارزاتٍ وسبى واستباحةٌ للحريم . وقد هام بعدها وهو في الخامسة والستين بابتنة مؤاجر ضياعه . وإني لأذكرها . وكانت شقراء ، شاحبة اللون ، حسنة السميت والشارة ، تتكلم متئدةً وفي صوتها لينٌ وترطيب ، ونظرتها حلوةٌ غايةً في الخلاوة كأنها نظرة العذراء في صورة الرسامين . فأخذها السيد الكهل عنده . وسرعان ما أصبح متيماً بها لا يطيق البعد عنها لحظة . وكانت ابنته وامرأة ابنه المقيمتان في القصر

لا تنكران من الأمر شيئاً لطول ما قرّ الحب في تقاليد الأسرة . فإن الأمر إذا كان أمر العشق فليس شيء فيه عندهما بمستنكر . وإذا جرى الحديث أمامهما عن هوى مخيّب مردود ، أو عاشقين افترقا ، أو حوادث الانتقام من الخيانة أو نقض العهد ، قالتا معاً في لهجة أسيفة شجوية : « له الله — أو لها الله — ! لشدّ ! قد تألم ولا ريب ، حتى بلغ الأمر به هذا المبلغ » ولا تزيدان على ذلك . فهما لا تبرحان تدركهما الرحمة لماسى الحب ، ولا تنقمان قط على أصحابه — ولو أجرموا .

( إلا أنه في ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شابٌّ في عنفوان الشباب ، هو المسيو دى جراديل . فاختطف الفتاة . وظل المسيو سانتيز هادئاً كأن لم يحدث شيء . وإذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقاً بمرقد الكلاب والكلاب حوله . لقد شنق نفسه . كذلك مات ابنه مثل هذه الميته في فندق بباريس في أثناء رحلته سنة ١٨٤١ على أثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له . وترك بعده ولداً في الثانية عشرة وأرملة هي أخت أمي . وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا في بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعاً .

( ولا يسعكم أن تتصوّروا كيف كان هذا الصغير سانتيز مدهشاً في نضجه الباكر قبل الأوان . وإنه ليخيل إلى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقة عاطفةٍ وسبحاتٍ نفس جائشةٍ قد اجتمعت فيه ، في هذا



العقب الأخير . وكان على الدوام سارحَ الفكرَ حالمًا ، يتمشى وحده ساعات كاملةً في ممشى رحيبٍ بين أشجار الدردار يمتدّ من القصر إلى الغابة . وكنت أقرب من نافذتي هذا الصبي الرقيق الوجدان ، وهو يسير ويُبدِ الخُطى ويدها خلف ظهره مطرقًا إلى الأرض . وأحيانًا يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحسُّ أشياءً ليست لمن كان في سنّه . وكثيراً ما كان يدعوني للخروج بعد العشاء في الليالي المقمرة قائلاً « هلمى يا ابنة الخالة نحلم ... » فنمضى سويًا إلى الروض . وكان يتوقف فجأةً في الفضوات بين تفاريح الشجر ، حيث تطفو تلك الهبوة البيضاء — مثل نديف القطن — يبطّن بها القمرُ فجوات الغاب . ويقول لى وهو يشدُّ على يدي « أنظري إلى هذا ، أنظري إلى هذا . ولكنك لا تفهمينى ، إني لأحسّ ذلك . لو أنك تفهمينى لكننا سعداء . لا بد من الحب لمن شاء المعرفة » وكنتُ أضحك وأقبله . أقبل هذا الصبي الذى يحبني مستهلكاً في حبي .

( وكان أيضاً بعد العشاء كثيراً ما يجلس على ركبتى أمى قائلاً لها « إيه يا خالة ، قصّى علينا شيئاً من قصص الحب » فتضحكى له أمى على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كافةً وجميع ما وقع لأبائه من الوقائع الغرامية . والناسُ يرددون من وقائعهم الألوف بعد الألوف من صحيحةٍ ومفتراة . إن هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم ، فلقد كانت هذه الأخبار الماثورة عنهم تسُور في رؤوسهم ويستجيشون لها فتملكهم العزة أن يكذبوا سمعةً يبتهم وما اشتهر به .



( وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفضيحتها ، وكان في بعض الأحيان يدقّ بيديه مردداً : « وأنا أيضاً ، وإني لأعلم بالحب منهم جميعاً » )  
 ( ثم جعل يتحجب إلى متغزلاً في استحياء وحنان عميق كانا مشاراً للضحك لشدة غرابة الأمر . وكان في كل صباح يقطف لي جنّ الزهر ، وفي كل مساء قبل صعودي إلى مقصورتى يلثم يدي هامساً « أنا أهواك » . )  
 ( لقد أذنبتُ ، وركبني أعظمُ الذنب . ومازلت على هذا نادمةً باكية لا يرقأ لي دمع . وإني لفي التكفير عن هذا طوال حياتي . وقد بقيت بعده عانساً لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترملة . أجل ، أنا أرمَلته . )  
 ( كنت ألهو بهذا الحب الصبباني ، بل كنت أعمل على إذكائه . فكنت إلى جانبه المرأة الخلوب ذات الدلّ ، وكأني إلى جنب رجل الأعبه وأخاتله . لقد فتنْتُ هذا الغلام ودلّته بحبي . وكان الأمر عندي لعباً ومعايشة ، وعند أمي وأمه تسليّة وترويحاً . . لقد كانت سنّه اثنتي عشرة فتأملوا ! مَنْ كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرامَ الدَرّيّ ! فكنتُ أقبله ما شاء ، بل كنتُ أكتب رسائل العشق له أقرؤها لأمي وأمه قبله . وكان يجيب عليها بكتب مسطورة ، كتب من نار ، وقد احتفظتُ بها . وكان معتقداً أنّ صلتنا الغرامية سرٌّ مكتوم . وكيف لا ، وهو يعتدّ نفسه رجلاً ، والأمر في عرفه الجدُّ كل الجد . وقد غاب عنا أنه من آل سانتييز . )  
 ( ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قرابة عام . وفي ذات مساء ونحن في الروضة خرّ جاثياً عند قدمي ولثم حاشية ثوبي في اندفاع المهتاج



مردداً « أنا أهواك ، أهواك ، أنا ميت في هواك . وإذا خفنتني في يوم  
من الأيام ، أسامعةً أنتِ — إذا هجرتني إلى سواي فاني صانعٌ مثلاً صانع  
أبي . . . » وأردف في صوتٍ عميقٍ يقشعرُّ له البدن « أنتِ عليمَةٌ  
بما صنع »

ولما وجمتُ ولم أحرِ جواباً نهض وشبَّ على أطراف قدميه ليبلغ  
إلى أذني — وكنت أفرع منه طولاً — ودعاني باسمي ، اسمي الأول  
« جنقيش » بنعمةٍ حلوةٍ جميلةٍ رقيقةٍ شملتني منها قشعريرةٌ سرَّت من  
فرعي إلى أخمص قدمي .

( فغمغمتُ « لرجع ، لرجع إلى الدار » . فلم ينبس بكلمةٍ وسار في  
إثري ، فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفني « أتعرفين ، إذا هجرتني  
فاني قاتلٌ نفسي »

( فعلمتُ هذه المرة أنني تماديتُ حيث لا يجب التماذي ، وجعلتُ  
أتكلف معه التحفظ . ولما أن كتبت ذات يومٍ يعتب عليّ ، أجبته :  
« أنت اليوم أكبرُ من عبث المزاح وأصغرُ من جدِّ الحب . وإني  
في الانتظار »

( وحسبتي بهذا قد أبرأت ذمتي .

( وفي الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية . فلما عاد في الصيف  
التالي كنت مخطوبة . فأدرك الأمر في الحال ، والتزم مدى ثمانية أيام  
هيئةَ المفكر الغارق في التفكير . فأهمني ذلك وساورني منه قلقٌ شديد .

( وفي صبيحة اليوم التاسع ، استيقظتُ من نومي فوَقعتُ عِمناي على  
رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب . فتناولتها ، وفتحتها فقرأت فيها  
« لقد هجرتني ، وأنتِ تعلمين ما قلته لك . لقد قضيتِ فيَّ بالموت . وإني  
لأحبُّ أن لا يعثر بي أحدٌ غيرك ، فتعالى إلى الروض في الموضع الذي  
قلتُ لك فيه إني أهواك وتطاعى في الفضاء »

( فكذبتُ أن أجن . وأسرعت بارتداء ثيابي وهرولت أجدى على  
عجلٍ ، وأجدى ، وأكاد أتساقط إعياءً ، إلى المكان المعين . وإذا قبَّعته  
الصغيرة المدرسية ملقاةً على الأرض في الوحل ، فقد كانت الليلة مطيرةً .  
ورفعتُ طرفي ، فأبصرت شيئاً معلقاً يترجَّح بين الورق . وكان يوم  
ريحٍ ، ريحٍ شديدة

( ولا أدري بعد ذلك ما صنعتُ . لقد صرختُ أول الأمر ولا ريب ،  
ولعلني سقطت بعدها مغشياً عليَّ ، ثم عدوت هائمةً على وجهي إلى  
القصر . وثبُتُ إلى الرشد في فراشي وأُمي إلى جانبي

( فخيل إلى أني رأيتُ مارأيتُ كلَّه في هذيانٍ حلمٍ فظيعٍ . فغمِمتُ  
« وهو ، أين هو ، جونتران ؟ » فلم يجبني أحدٌ . إنها الحقيقة ...

( ولم أجدُ على طلب رؤيته . وطلبتُ إليهم خصلةً طويلة من شعره  
الأشقر . وهذي ... هذي ... هي ... )

ومدَّت العانسُ يدها الراجفة بحركة القائط المقطوع الرجاء .

ثم أخرجت منديلها ، ومخطت مراتٍ ، ومسحت عينيها الدامعتين ،



واستأنفت تقول : « وتقضتُ الخطبة دون إبداء السبب ... وبقيتُ ...  
بقيتُ طوال العمر ... أرملة ... أرملة هذا الصبي ابن الثلاثة عشر  
ربيعاً » . ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلاً بدموع الذكري .  
ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد ، مال صيادٌ غليظ الجسم  
— قد أفسدت عليه الحكاية صفوه — إلى أذن جاره هامساً :  
« ألا ترى أن رقعة الشعور إلى هذا الحد بلاء ، وشرُّ بلاء ! »







## في ضوء القمر

« للروائي الفرنسي جى دى موباسان »

كان الأب « مارنيان » جديراً باسمه الحربى . فهو قسٌّ مديدُ القامة قليلُ اللحم مجدول ، شديدُ العصبية ، له نفسٌ ساجحة على الدوام هائمة ، إلا أنها مستقيمةٌ لا التواء فيها . عقائده كلها ثابتة راسخة ، لم تعتمورها قط ذبذبةٌ الحيرة . وقد وقرَّ في وهمه عن اعتقادٍ وخالص إيمانٍ أنه يعرف ربَّه ، وأنه يدرك كنهَ حكمته ومشيتته ومرامى تصاريفه .

وكان أحياناً وهو يتمشى بخطواتٍ واسعة في ممشى داره الخلوية الصغيرة يقوم بخاطره أن يتساءل : « لأى سببٍ من الأسباب كان خالقُ الله لهذا الشيء ؟ » فيبحث ، ويلجّ في البحث مفترضاً نفسه في متبوءِ الله تصوراً للسبب المنشود . وكان في معظم الأحوال يُوفق إلى الاهتداء إلى سبب . فليس هو من الذين يغمغمون في فيضٍ من الإخبات والخشوع « يارب ، جلّت حكمته عن إدراك المدركين ! » . كلا ، بل هو يقول في ضميره « أنا خادم الله ، فواجب أن أعرف دواعى تصاريفه ، أو أن أتوسمها تخميناً إذا أعيانى عرفانها يقيناً » .

فكل شيء في الطبيعة يبدو له مخلوقاً على أكل القياس المنطقي

وأروعه . لكل معلول علة . والمسائل والأجوبة متعادلة على الدوام في الميزان . فالله قد خلق مطالع الفجر لنتفتح على البهجة عيوننا ساعة اليقظة ، وكذلك خلق النهار منضجاً للحصاد ، والأمطار للرى ، والأصائل تمهيداً للنوم وحللك الظلام للرقاد .

والفصول الأربعة مطابقة لمقتضيات الزراعة كل المطابقة . ولم تخامر القسّ قط شبهة بأن الطبيعة لا مقصد لها ، وأن الكائنات الحية جميعها خاضعة لأحكام الدهور واختلاف الأجواء وطبيعة المادة .

ولكنه كان يبغض المرأة . يُبغضها عَفْوَ سجيته ويحتقرها بفطرته . وكثيراً ما كان يردد قول المسيح « أيتها المرأة ، أئى وجهٍ للشبه بينك وبينى ؟ » ثم يعقب على ذلك : « لَكُن الله نفسه غير راضٍ عن هذا الصنيع من صنائعه » . فالمرأة عنده هي ذلك الوليد الرجس المضاعف الرجس الذى يحدثنا الشاعرُ عنه . ولقد كانت شيطان الغواية الذى استدرج آدم أول الرجال ، وما برحت دائبةً على سعيها المضللّ الموقع فى الفتنة والهلاك الأبدى ، تلك المخلوقة الضعيفة الخطرة ، مثيرة الشجون الغامضة . وإنه على كراهته لجسمها الموبق لأشد كراهة لنفسها النزوع إلى الحب .

وياطلما شعر من النساء بعطفهنّ يشملهُ . فكان — مع ما يعهده فى نفسه من المناعة دون سطوتهنّ — يستشيط حنقاً ونقمةً على ما يحتاج أبداً العمر فى أنفسهن من حاجة إلى الحب .



فالله في اعتقاده لم يخلق المرأة إلا لغواية الرجل وابتلائه . فيجب ألا يدنو الرجل منها إلا مزوداً بأهبة الدفاع واستشعار الحذر من الوقوع في حبالها . وإنها في الواقع لشبيهة بأحبولة الصياد بذراعيها الممدودتين إلى الرجل وتغرّها المفترّ له .

فلا سماح ولا موادةَ عنده إلا للراهبات جعلهن التبتّل مكفوفات الأذى . بيد أنه مع هذا يجفو في معاملتهن لأنه يحسّ في سويداء قلبهن المقيّد المهيض ذلك العطف السرمدي الذي لا ينفك نابضاً حياً ، والذي يتجه إليه أيضاً ، مع كونه قسّاً

وهو يأنس ذلك في لحاظهنّ الخضلة من التعبّد والتخشّع اخضالاً لا يعهد مثله في لحاظ الرهبان . يأنس ذلك في سباحات وجّدهن الصوفيّ المتزج بالإحساس الجنسيّ ، في لهفة حبهن للمسيح لهفةً تُسخط القسّ وتُثيره ، لأنها بعد حبّ نسائيّ ، حبّ حسيّ . يأنس ذلك العطف اللعين في انقيادهن ، وفي حلاوة صوتهن وهن يتحدثن إليه ، وفي إطراقة أبصارهن وفي دموعهن المستسامة عند ما يعنف في تقيدهن .

فتراه لدى خروجه من أبواب الدير ينفض مسحة الكهنوتيّ ، ويمضي مُطعماً ممدود الخطا كما يفر من خطر .

وكانت له ابنةٌ أختٌ تعيش مع أمها في منزل صغير مجاور . وهو لا يني دائب السعي لجعلها أختاً من أخوات الرحمة .

وكانت حسناء ، خفيفة الحلم عابثة . يعظ الأب فتضحك ، فإذا تكدر

منها عانقته بشدةٍ وضمته إلى صدرها ، وهو يحاول غير مختار أن يتخلص من هذه الضمة التي تذيبه مع هذا متعة حلوة ، إذ تنبه في قرارة نفسه إحساس الأبوة الهاجع في نفس كل رجل .

وكثيراً ما كان يحدثها عن الله — عن ربه — وهو سائر إلى جنبها في ممشى الحقول . وهي قليلة الإنصات إليه ، تنو إلى السماء وإلى العشب وإلى الأزهار ، سعيدة بالحياة سعادة تتراءى شاهدة في عينيها . وتنطلق عنه أحياناً لمطاردة بعض الهوام ، ثم تهلل فرحة وقد اقتنصتها : « انظر يا خالي ، ما أملحها ! لوددت لو ضمتها » . وهذه الحاجة إلى ضم متطائر الفراش وأكمام الزنبق تقلق بال القس وتغيظه وتستثيره ، إذ يجد هنا أيضاً ذلك العطف الذي لا سبيل إلى اقتلعه ولن ينفك نابت الجرثومة في قلوب النساء .

وتعاقبت الأيام في إثر الأيام ، وإذا بزوجة سادن الدير — القائمة بتدبير منزل القس — تنبئه ذات يوم في احتياط وتحفظ أن لابنة أخته عاشقاً .

فهزه ذلك هزة عنيفة ووقع منه موقعاً شديداً . ولبت مختنق الصوت ، ورغوة الصابون تعم وجهه ، إذ كان يخلق وقتئذ .

ولما أن ثاب إلى حالٍ يستطيع معها التفكير والكلام ، صاح قائلاً : « هذا غير صحيح . أنت تكذبين يا ميلاني ! »

فوضعت القروية يدها على قلبها وقالت : « ليقض الله تعالى قضاءه في »



إِنْ كُنْتَ كاذبةً يا سيدي الأب ، وأنا مُخبرتكَ أنها تذهب إلى هنالك كل ليلةٍ بعد أن تأوى أختك إلى مضجعها . وهما يتلاقيان على ضفاف النهر . وما عليك إلا أن تذهب وترى بعينيك بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل »

فأمسك القس عن حكاية ذقنه بالموسى . وطفق يذهب ويحجى في عنفٍ كدأبه في ساعات التفكير الخطير . ولما أراد استئناف الحلقة جرح نفسه ثلاثاً فيما بين أنفه وأذنه .

وظل سحابة النهار صامتاً ، منتفخ الأوداج قد امتلأ موجدَةً وغضباً . ولا جرم ، فقد زادت فوق نقمة الكاهن على نزعة الحب الغلاب نقمة الأب المعنوي ، والقيم الوصى ، والموكل بالتهذيب الخلقى ، وقد رأى نفسه مخدوعاً ، مسلوباً ، لعبت به طفلة . هذا هو الكربُ الأنانى الذى يشجى به الآباء حين تؤذَنهم الفتاة بأنها — من دونهم وبالرغم منهم — قد اختارت لنفسها الزوج الذى تقر به عينها .

وبعد العشاء حاول الأب أن يقرأ قليلاً ، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، فازداد حنقاً على حنق . ولما دقت الساعة العاشرة تناول عصاه ، وهى عصا من البلوط رهيبة يستصحبها دائماً فى جولاته الليلية عند ذهابه لعيادة مريض . وتأمل مبتسماً هراوته الضخمة ، ولوّح بها فى قبضة يده الشديدة الأسر شأن أيدى أهل الريف . ثم رفعها على حين فجأة وأهوى

بها — وهو يَصْرُفُ بأسنانه ويعض نواجذه — على أحد المقاعد فانهار  
قعره المفلوق على أرض الغرفة

وفتح الباب للخروج . ولكنه وقف على الصيد ، مبهوتاً مأخوذاً  
بلا لاء القمراء يفيض فيضاً قلما رأى الراؤون مثله .

ولما كان القسُّ ذا نفسٍ هائمةٍ ساجدةٍ ، من النفوس اللواتي كانت  
لا محالة لآباء الكنيسة الأولين ، أولئك الشعراء الحالمين ، فقد ظل سارح  
الفكر مستغرق الحس في غمرة ذلك الجمال الرائع الساجي في جنح هذى  
الليلة الأضحيان .

وكان كلُّ شَيْءٍ في حديقته الصغيرة غارقاً في الضياء اللين اللطيف .  
وأشجار الفاكهة المصفوفة ترسم على أديم الممشى خيالاً أوصالها المتفرعة  
الدقيقة التي لا يكسو عريها إلا القليل من مخضوضر الورق . على حين  
تعبق من النبات الباسق المتسلق على جدار بيته أنفاسُ زهرة العسل  
لذيذة العبير ، حتى لكانها في حقيقة الواقع معسولة . وهذه الأنفاسُ  
تهفو في الليل المقمر أشبهَ بروحٍ عاطرة .

وجعل الأب يتنفس ملء صدره ، ويعبُّ الهواء كما يعب الخمر  
معاقرها المدمن . ومضى متمهلاً متريث الخطى ، مسحوراً مدهوشاً ،  
وقد غابت ابنة أخته عن باله .

فلما أن صار في وسط الحقول ، توقف يتأمل الوادى المنبسط مغموراً  
بهذا السَّيِّ المتترق ، غارقاً في هذا الحسن الرقيق الدنف الذي يأنسه



السارى فى الليالى الساجية . وكانت الضفادع تُرجى فى الفضاء طوال  
الآناء ترجيع نقيقتها المقتضب المعدنى . والبلايل من بعيد تسلسل مثل  
الجمان نغمها الرخيم الباعث إلى سَبَّحة الحلم دون جهد التفكير ، فتمزج  
موسيقاها — موسيقى القُبَل النابضة الطروب — بلألاء هذه القمراء التى  
تسبى الألباب وتقيم القلوب .

واستأنف الأب المسير ، خائر القلب من غير أن يدري لذلك سبباً .  
ثم أحسّ بغتة أنه مضضع القوة منهوك ، وودّ لو يجلس ويُطيل هنا  
مكثه ، ويُنعم النظر فيما حوله ، ويسبّح لله ويكبرّ له فى بديع صنعه  
وبدا هنالك صفٌّ من أشجار الحور الباذخة ينثنى وينعرج متابعاً  
للجدول فى تعاريجه . وحول ضفاف الجدول المرتفعة وفوقها ينعقد ربابٌ  
لطيف ، بخارٌ أبيض تتخلله أشعة القمر ، وتفضّضه ، وتجعله ضيئاً شعشعانياً .  
وهذا الربابُ الوضىء يلفّ مجرى النهر المتعرج بمثل مندوف القطن  
الخفيف الشفيف

فوقف القسُّ مرةً أخرى ، لقد خامر نفسه فى أعماقها حنوٌّ متزايدٌ  
لا يُغالب .

وغشيته حيرةٌ وقلقٌ مبهم . وأحسّ باستفهام يخالجه من قبيل تلك  
الاستفهامات التى يطرحها على نفسه فى كثير من الأحيان .

فيمَ يصنعُ اللهُ هذا ؟ وما دام الليلُ قد جعل للنوم ، للسباتِ وفقدانِ  
الوعى ، للراحة ، للنسيانِ الشامل ، فما الداعى إلى جعله أبدعَ من النهار

رونقاً وحسناً ، وألطف من الأسحار والأصائل . وما بال هذا الكوكب  
السارى الباهر، يطلعُ بطلعه الشاحبة فيكون أشجى شاعريةً من الشمس ،  
وكأنما هو بضياءه اللين الذى لا يغلو غلوها فى كشف الأستار وفضح  
الأسرار مهياًً للتجلية عن أشياء ألطف مادةً وأدقَّ معنىً من أن يجلوها  
النور . ما بال هذا الكوكب السارى يغشى الليل بضياءه حتى  
تشفَّ حنادسه ؟

ما بال أبرع الطير الصوادح إنشاداً ، وأرخمها توقيعاً ، لا تستجم ولا  
تهدا كسائر الطير ، بل تُنشئ تهزج وتترنم فى جنح الليل الساجى ؟ فيم  
اشتال هذا الكون بشبه نقاب فلا هو محجَّب ولا هو سافر ؟ فيم وجيب  
القلب هذا الوجيب ، وانفعال النفس هذا الانفعال ، وتفتر الأوصال  
وكلال الجسد هذا التفتر وهذا الكلال ؟

فيم إظهار هذه المفاتن التى لا يبصرها الناس إذ هم فى مضاجعهم  
راقدون ؟ ولئن هذا المشهد الجليل ، هذا الفيض الشعرى تغدقه السماء  
على الأرض ؟

لم يدرك الأب لذلك سبباً

وإذا هنالك فى أطراف المرج ، تحت قباب الشجر المبلل بالرباب  
الوضئ ، خيالان مترائيان يسيران جنباً إلى جنب .

الرجل أطول قامه ، وهو يمشى صاحبه مطوّقاً جيدها ، ويلثم من حين  
لآخر جبينها . وقد انبعشت الحياة فجأةً منهما فى هذا المنظر الجامد المائل



الذى يحيط بهما كأطارٍ سماويٍّ صيغٍ لهما . وكأنما هما معاً كائنٌ واحد ،  
الكائن الذى اختصته القدرةُ بهذه الليلة الهادئة الساكنة . وكانا مُقبلين  
من بعيدٍ صوبَ القسِّ ، كأنهما جوابٌ حىٌّ ، الجواب الذى أرسله  
المولى على سؤاله

ولبت القسِّ واقفاً ، خافقَ القلبَ مخبولاً ، وخيّل إليه أنه يرى  
صفحةً من التوراة ، شيئاً أشبه بغرام راعوث وبوعز ، آيةً من آيات  
المشيئة الإلهية بين معالم مشهدٍ رائعٍ من تلك المشاهد التى تتحدث  
عنها الأسفارُ المقدسة . وطفقت تدوى فى رأسه ترانيمٌ من نشيد الأنشاد ،  
بما فيه من هتافاتِ الشوق ودواعى الحسِّ وكلِّ حرارةِ الشعر فى تلك  
القصيدة الملهمة محبةً وعظفاً .

عند ذاك قال فى نفسه : « لعلَّ اللهَ خلقَ هذه الليالى ليسبغَ أروعَ  
الأستار على حب البشر » .

ونكص على أعقابهِ أمام هذين الإلفين المتعانقين وهما يتمشيان .

ولكن ، أليست هذه ربيبتَه ، ابنة أخته ! بلى ، ولكنه قد راجع  
نفسه الآن فيما جاء من أجله تسليماً لمشيئة الله . أفيحرم الله الحبَّ التحريم  
كله ، وهو يحوطه عياناً بمثل هذا البهاء المبين ؟

وولّى القس مدبراً ، مشدوهاً ، يكاد يتعثّر من الخجل ، كأنما اقتحم  
هيكلاً لا يحقّ له دخولُ حرّمة





## الجواهر

« للروائي الفرنسي جى دى موباسان »

التقى المسيو « لنتان » بهذه الفتاة فى إحدى الليالى بمنزل وكيل المكتب ، فإذا هو مقيمٌ بها كالكفيمص فى الشَّرْك استحكمتُ عليه حلقاته واجتمعت أطرافه .

وكانت الفتاة ابنة جابٍ من جبابة الضرائب فى الأرياف قضى نحبه من سنوات عدة . فقدِمَتْ بها أمُّها إلى باريس ، وكانت تتردد على بعض الأسر من أهل الطبقة الوسطى فى الحىِّ على أمل أن تزوج الفتاة . وكاننا بحالٍ رقيقةٍ ولكنهما من ذوات الشرف والوداعة ولين العريكة . وكانت الفتاة مثلاً للمرأة الفاضلة التى يتمناها الفتى العاقل لتكون الفتاة الأمينة على حياته . جمالها الخَفِرُ فيه معنى من طهر الملائكة ، وابتسامتها الخفية التى لا تفارق شفقتها كأنها ظلٌّ يعكس نقاء سريرتها .

فالناس على اختلافهم السنة تلهج بإطرائها ، وعارفوها جميعهم لا يفرغون من تكرار قولهم : « سعيدٌ من يتخذها زوجاً . هيهات يوجد خيرٌ منها » . وكان المسيو لنتان وقتئذٍ كاتباً أول فى وزارة الداخلية يتقاضى مرتباً قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك فى السنة فخطبها وتزوجها .

ولقد هنىء الرجلُ بعشرتها هناءً فوق التصديق . وكانت تدبر شؤون بيته حتى لتسبهما لحسن التدبير من أهل الترف . وكانت لا تدع لوناً من ألوان الرعاية والركة والتعجب إلا حاطت به زوجهما . وبلغ من فتنتها أنه كان بعد ستة أعوامٍ طوالٍ من لقائهما أشدَّ لها حباً ، وبها شغفاً منه في الأيام الأولى .

وهو لا يأخذ عليها غير أمرين . ولُعها بالمسارح ، وكلفها باقتناء الجواهر الكاذبة . وكانت صواحبتها — من نساء الموظفين متوسطى الحال — يوالينها في كل حين بالمقاصير في الروايات التمثيلية ذات الرواج والشهرة ، بل في الليالى الافتتاحية من تمثيلها . وكانت تجرّ زوجها راضياً أو كارهاً إلى هذه الملاهى فيعييا بها أشدَّ الإعياء بعد عمله طوال اليوم . ولقد رجاها وألحف في الرجاء أن تعفيه ، وتذهب إلى التمثيل في صحبة سيدة من معارفها تعود بها بعده ، فتمنعت ، وظال تمنعها ، لما تجد في هذا التصرف من قلة اللياقة . وأخيراً قبلت مرضاة له ، فحمد لها ذلك كل الحمد

وهذا الولع بالمسرح سرعان ما أشعرها الحاجة إلى الزينة ، فلم تعُدْ بها حدَّ البساطة . حقيقةً أنها كانت دائماً آية على حسن الذوق ولطافة الحس إلا أنها بعدُ زينةً متواضعةً . ومع هذا فإن حسنها الحلو ، حسننها الصبيح المستكين الذى لا يُغالب ، كان كأنما يكتسب من بساطة ثيابها طعماً جديداً ووقعاً مستظرفاً . ولكنها إلى هذا تعودت أن تقرّط أذنيها بحجرَيْن متلأئين يشا كلان الماس ، وأن تتخذ قلادةً من اللؤلؤ المكذوب



وأَساورَ من ذهبٍ مموّهٍ وأمشاطاً محلّاةً بضروب من الخرز تمثّل شدورَ  
الجواهر .

وكان زوجها ينكر بعض الشيء هذا الروع منها بالهرج ، ويكرر عليها  
القول :

— « يا عزيزتى ، إذا لم تملك الغايات اقتناء الجواهر الحقيقية ،  
فحسبها أن تبدو حاليةً بجمالها وصباحتها ، وإنها لأنفسُ الحليّ »  
فكانت تبسّم ابتسامةً حلوةً وتقول :

— « ماذا تريد ؟ إني أحب هذا ، وهذا عيبي . إنك على الحق ،  
وما فى ذلك عندى أدنى ريب . ولكن المرء لا يخلق نفسه خلقاً آخر .  
أترانى كنتُ أعبد الحليّ ، أنا ! »  
فيهتف الزوج باسمًا :

— « إنّ لك ذوقُ نساء النور »

وفى بعض الأحيان ، وهما وحيدان فى المساء إلى جانب المصطفى ، تقوم  
فتأتى إلى المائدة التى يتناولان عليها الشاى بعلبة الأدم المدبوغ التى أودعتها  
« الخردة » على حدّ تعبير زوجها ، وتقبّل على هذه الحليّ المقلّدة تُعَمّن  
فيها النظرَ بهيام كأنها تتملى منها بمتعةٍ روحية عميقة . ثم كانت تصرّ على  
أن تجعل فى عنق زوجها عقدًا من هذه العقود ، وتضحك ملء فيها وقلبها  
أجمع وهى تقول : « إنك لمضحكٌ حقًا ! » ثم ترتمى بين ذراعيه وتقبله  
فى فتونٍ وولّه .

وفي ذات ليلة من ليالى الشتاء كانت فى الأوبرا وعادت ترتعد من  
البرد . وأصبحت فى اليوم التالى تسعل . ولم تمض أيامٌ ثمانية حتى كانت  
قد اشتدَّت بها النزلةُ الصدرية وعاجلتها المنية .

وكاد لنتان يلحقها إلى القبر . وبلغ من يأسه أن علاهُ الشيبُ فى مدى  
شهرٍ واحد . فهو يبكى صباحَ مساء ، ونفسُهُ الجريحة يمزقها ألمٌ لا يطاق  
ولا يُستطاع الصبرُ عليه ، رهينُ الوجد نجىُّ البلبال ، لا تبرح تساوره  
الذكرى وتتمثل له من الفقيدة الابتسامة والصوتُ والحسنُ الخلاب ، ولم  
يخفف تطاولُ الأيام من لوعته . فكثيراً ما تراه فى مكتب عمله وقد أقبل  
زملاؤه يسمرّون سمرّهم فى شئون يومهم ، فإذا به قد انتفخ شذّاه ، وتقلّص  
أنفه ، وتفرّغت عيناها بشآبيب مأثما وانقلبت سحنته انقلاباً فظيماً ،  
وأكبَّ ناشجاً منتحباً .

ولقد أبقي مخدعَ قرينته على حاله ، يختلى فيه بنفسه كلَّ يوم ليذكرها  
ويفكر فيها . فكان أثاثُ مخدعها وثيابُها جميعاً فى مواضعها كما خلفتها آخر  
يوم من حياتها . ثم إن الحياة شقّت عليه وتصعّبت . فهذا راتبه الذى  
كان بين يدي زوجته يسد حاجات البيت كافةً قد بات لا يكفيه اليوم وحده .  
فهو يسائل نفسه مبهوتاً كيف استطاعت بتصرفها أن توفر له دائماً شربَ  
جيد الخمر وتناول شهىّ الطعام مما يُعييه بموارده المتواضعة أن يحصل اليوم  
عليه . فاستدان ، وسعى وراء المال سعى الحاويج تضطّرم الحال إلى الاحتياج  
له بشتى الوسائل . وأخيراً أصبح ذات يوم فألقى نفسه صفر اليدين قبل



نهاية الشهر بأسبوع كامل ، فدار في خَلده أن يبيع بعضَ ما عنده . وسرعان ما خطر له التخلصُ من « الخردة » التي كانت لامرأته . فإنه ليضمّر في قرارة نفسه شبه ضغينةٍ على هذه البهارج « خُدعة الأَبصار . » ولا جرم ، فهي موضع ملاحظته من قبل ومشارٍ إنكاره . أن مجرد رؤيتها كلَّ يوم ليفسد عليه بعضَ الافساد ذكري زوجته الحبيبة .

وقلَّب طويلاً في هذه الكومة من الحليّ البراقة التي خلفتها — فإنها ما برحت إلى أواخر أيامها ماضيةً على اقتنائها سادرة ، تبيء كلَّ يوم بتحفةٍ منها جديدة — ووقع اختياره على العقد الكبير الذي كانت تستحبه وتؤثره على غيره ، وهو يعدل بحسب تقديره ستةَ فرنكات أو ثمانية ، لكونه أدقَّ صنعةً من المعهود في أمثاله من زائف الحليّ . فأودعه جيبه ومضى إلى وزارته يسلك إليها الشوارع الكبرى ملتمساً حانوت جوهري يطمئن إليه .

وأخيراً وقع بصره على الحانوت المنشود ، فدخله خجلان يتعثر لاضطراره إلى عرض فقره وسوء حاله ساعياً إلى بيع شيءٍ كهذا خسيس القيمة . وقال للتاجر :

— « سيدي ، أودّ أن أعرف ما تقدره لهذه القطعة »

فتناول الرجل القطعة ، وخصها ، وقلّبها ، ووزنها بكفه ، وعمد إلى المجهر ودعا إليه كاتب حساباته وأسرّ إليه بعضَ الكلمات . ثم وضع العقد على دكته ، ورمقه من بعيدٍ لينظر إلى وقعه وتأثيره

وضاق المسيو لنتان بهذه الرسميات ، وفتح فاه ليقول : « أوه ، إنى لأعلم  
حقّ العلم إنه شىء لا قيمة له » لولا أن سبقه الجوهرى إلى الكلام :

— « سيدى ، هذا يساوى بين الاثنى عشر ألفاً إلى الخمسة عشر ألفاً  
من الفرنكات ، وأنا لا يسعنى شراؤه حتى يحيطنى علماً بمصدره »  
فخلق الأرملة بعينيه ، وظل فاغراً فاه لا يعقل شيئاً . وأخيراً نبس  
مغمماً :

— « ماذا تقول ؟ . . . أواثق أنت ! »

وحمل الرجل اندهاشه على غير محمله . وقال فى لهجة جافة :

— « يمكنك أن تتحرى فى محل آخر إن كانوا يزيدونك فيه .  
أما عندى فيساوى خمسة عشر ألفاً على أكثر تقدير . فإذا لم تجد خيراً  
من هذا الثمن فعاودنى »

واستردّ المسيو لنتان العقد فى بلاهةٍ وخبال ، وانصرف مدفوعاً بحاجة  
مبهمة إلى الخلوة بنفسه والتفكير . على أنه ما بلغ الطريق العام حتى كاد  
ياخذه الضحك ، وأخذ يحدث نفسه : « ياله من مغفل . أوه ! ياله  
من مغفل ! ليتنى مع هذا أخذته بكلمته ! ها كم جوهر ياله يعرف الزائف  
من الصحيح »

ودخل عند تاجرٍ آخر فى أول شارع دى لاييه . فما كاد يقع نظره  
الصائغ على الحلية حتى هتف :



— « آه ! وايم الله . إني لأعرف حق المعرفة هذا العقد . إنه من عندي »

فقال مسيو لنتان وهو شديد الارتباك : « كم يساوى ؟ »  
— « سيدى ، لقد بعته بخمسة وعشرين ألفاً . وإني على استعداد لأخذه بثمانية عشر ألفاً ، إذا تفضلت — عملاً بالتعليمات الرسمية — فدلّكُتنى كيف صار إليك »

وفى هذه المرة تساقط مسيو لنتان على المقعد كمن أقعدته الدهشة ، وتمتم : « ولكن .. ولكن .. أمعن النظر جيداً يا سيدى . كنتُ حتى الساعة أحسبه مصطنعاً »

فقال الجوهري : « أتتكرم يا سيدى بذكر اسمك ؟ »

— « أجل . اسمى لنتان ، وأنا موظف بوزارة الداخلية ، وقاطن فى المنزل رقم ١٦ شارع الشهداء »

وفتح التاجر دفاتره وقلب فيها ثم صدع بالقول :

— « هذا العقد أرسل حقيقة إلى عنوان مدام لنتان رقم ١٦ شارع الشهداء فى العشرين من يوليو سنة ١٨٧٦ »

وحدّق الرجلان كلٌّ فى عينى صاحبه ، وقد طار لبُّ الموظف من الدهش ، واستوحش التاجر من ناحيته وتوسّم فيه لصاً . وقال :

— « هلا تكرمت بترك هذا الشيء أربعاً وعشرين ساعة لا أكثر ، وأنا معطيك عنه إيصالاً »

فتمتم المسيو لنتان : « أى نعم . يقيناً » .

وخرج وهو يطوى ورقة الإيصال ويضعها فى جيبه ، ثم عبر الشارع ،  
وأصعد فيه ، ثم أدرك أنه ضلَّ الطريق فأنحدر إلى التويلرى ، وجاز  
السين ، ثم أدرك مرةً أخرى ضلاله فعاد إلى الشانزلزيه وليس فى رأسه  
فكرة جلية . وحاول جهده أن يتعقّل ويفهم . إن امرأته ما كانت  
لتقدّر على شراء شيء ذى قيمة كهذا . كلا ، كلا . إذن ، فهذا هدية !  
هدية ! هدية ممن ؟ ولماذا ؟

وتوقف الرجل ، وظلَّ واقفاً وسط الطريق . وطاف به الشكُّ الفظيع  
— هى ؟ — وإذن فسائرُ الجواهر الأخرى كانت أيضاً هدايا ! وخيّل  
إليه أن الأرض تميد تحت قدميه ، وأن شجرةً تهوى أمامه ، فمد ذراعيه  
وارتمى فاقدَ الحس .

واستفاق من غشيته فى صيدليةٍ حمله إليها بعضُ السابلة ، فاستقلَّ  
عربةً وأوى إلى منزله .

وجنَّ الليلُ وهو يبكى بكاءً الواله ، ويعض منديله حتى لا يُسمع  
نشيجه ، ثم أوى إلى الفراش مرهقاً من التعب والحزن ، ونام نوماً ثقيلاً .  
وأيقظه شعاعٌ من الشمس ، فقام فى تشاقلٍ ليمضى إلى وزارته . بيد أنه  
يشقُّ على المرء العملُ بعد رجّاتٍ عنيفة كهذه . فجرى فى خَلده أن فى  
إمكانه الاعتذار لدى رئيسه فكتب إليه . ثم تمثّل له أن لا بد من  
العودة إلى الجوهري ، فاستخزى ، وعَلَّتهُ حمرةُ الخجل ، وطال به التفكير .



إنه لا يمكن بحال أن يدع العقد عند الرجل . فارتدى ثيابه وخرج .  
وكان اليوم صحوّاً رائعاً ، والسماء الصافية ممدوداً رواقها على المدينة ، فإذا  
هى من البهجة كمن يهشّ ويبتسم . والمتنزهون من ذوى الفراغ ماضون  
سببلاً وأيديهم فى جيوبهم .

وحدثت لنتان نفسه وهو يلحظهم يعبرون : « ما أسعد المرء ذى الغنى  
والثراء ! آه ، ليتنى كنت غنياً ! »

وأحسّ بالجوع . إنه لم يذق طعاماً منذ الليلة البارحة . ولكنه مفلسٌ  
خالى الوفاض . فتذكر العقد . ثمانية عشر ألف فرنك ! إنه لمبلغٌ  
وأى مبلغ !

فصار إلى شارع السلام ، وجعل يذرع الإفريز طولاً وعوضاً تجاه  
الحانوت . ثمانية عشر ألف فرنك . وهمّ بالدخول عشرين مرة فكان  
الحجل يمنع .

ولكنه كان جوعان ، جدّ جوعان ، ولا فلسّ معه .  
وحالما أبصره التاجر ، بادر وقدم له فى أدب مقعداً وهو يهشّ فى وجهه ،  
وأقبل كتبة الحل أنفُسهم يلحظونه عن عُرْضٍ ولوائح السرور فى  
عيونهم وشفاههم .

وقال الجوهرى : « سيدى ، لقد استعملتُ . فإذا كنت على عزمك  
فإنى على استعداد لدفع القيمة التى عرضتها عليك »  
فغمغم الموظف : « أجل »

أخرج الصائغ من أحد الأدراج ثمانى عشرة ورقة كبيرة ، وعدّها ،  
ومدّ يده بها إلى لنتان ، فأمضى بها إيصالاً صغيراً وأودع المال في جيبه  
بيد مرتجفة .

وحين همّ بالانصراف التفت إلى التاجر الدائم الابتسام ، وتتم خافض  
الصوت :

— « عندى ، جواهر أخرى .. جاءت .. عن طريق الميراث  
نفسه ، فهل يوافقك أن تشتريها منى كذلك ؟ »

فانحنى التاجر وقال : « نعم ، يا سيدى »

وخرج أحد الكتبة ليضحك ما شاء أن يضحك ، وأخذ آخر يسعل  
متعسفاً ، أما لنتان فقال محمّر الوجه متجلداً متوقراً : « سأتيك بها »

واستقلّ مركبةً ومضى فى طلب الحلّى . وبعد ساعة عاد إلى التاجر  
ولم يتناول بعد طعام فطوره . وطفقا يفحصان الأشياء قطعةً قطعةً  
ويسوّمان كلّ واحدة . وكان معظمها من الحل .

وأخذ لنتان يساوم فى الأثمان ويتغضب ويطلب الاطلاع على دفاتر  
البيع ، وكان صوته يتعالى كلما ارتفع السعر .

فأقراط الماس الكبار بعشرين ألف فرنك ، والأساور بخمسة وثلاثين  
ألفاً ، والمشابك والخواتم والأنواط بستة عشر ألفاً ، وحلّية من الزمرد  
والياقوت الأزرق بأربعة عشر ألفاً ، وفريدة من يتائم الدرّ منوطة  
بسلسلة ذهبية بأربعين ألفاً . وتبلغ الجملة مائة وستة وثمانين ألف فرنك .



وهنا قال التاجر في بساطةٍ ساخرة :

— « هذا تراث من أودع في المجوهرات كلَّ ما اقتصد من مال »

فرد لنتان في وقار :

— « إنَّ هي إلا وسيلةٌ كغيرها من وجوه توظيف المال »

ثم انصرف بعد أن استقرَّ رأيه مع الشاري على إجراء مراجعةٍ أخرى  
من آل الخبرة في الغد

فلما أن صار في الطريق العام ، نظر إلى عمود القندوم ، وفي نفسه أن  
يتسلقه كأنه لعبة الصاري ، والتفتَ نَحَفَتْ نفسه إلى أن يلعب القفزَ  
فوق تمثال الإمبراطور القائم هناك في الفضاء .

ومضى فتناول الغداء في مطعم قوازن ، وشرب خمرًا من التي ثمن  
زجاجتها عشرون فرنكاً .

ثم استقلَّ عربةً وطاف في غاب بولونيا ، وكان يرمق المركبات ومَن  
فيها بشيءٍ من الزرابة والاستخفاف . وبه شوقٌ جامحٌ مستبدٌّ إلى أن  
يهتف في الرواد : « أنا أيضاً غنيٌّ ، أنا غني . إني أملك مائتي ألف  
فرنك ! »

ثم تذكر الوزارة . فأشار للسائق أن يقصدها ، وعمد إلى الرئيس معلناً :

— « لقد أتيت يا سيدي مقدماً إليك استقالتي . لقد ورثت ثلثمائة

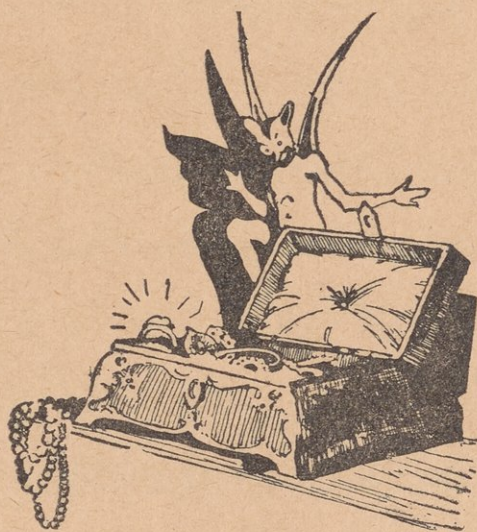
ألف فرنك »

ومضى يصافح زملاءه السابقين ويُفَضِّي إليهم بما انتواه من حياة  
جديدة . ثم تناول العشاء في المقهى الإنجليزي .

وهنا ألقي نفسه إلى جانب سيِّدٍ استوجهه ، فحكَّت في نفسه رغبةٌ  
ملحة غلابةٌ ، فإذا هو يُفَضِّي إليه في دالَّةٍ وازدهاء أنه ورث أربعائة  
ألف فرنك .

والمرة الأولى في حياته لم تسأم نفسه المسرح ، وقضى ليلته مع  
بنات الهوى .

وبعد شهرٍ ستة تزوج . وكانت زوجته الثانية من الحرائر جدًّا  
شريفة ، ولكنها كانت عسيرة الخلق ، فلقى معها عنتاً شديداً .





## بلقيس (ملكة سبأ)

« بقلم عبد الرحمن صدق »

كانت الليلة من تلك الليالي الرقيقة الساجية ، التي كأنما تشتمل في طياتها على أسرار غريبة ونجوى عميقة ، تحسّ النفس لطفها ولا تدرك كنهها . وقد طلع القمر وضّاح الجبين ، ندّى الصفحة ، روحانيّ الطلعة ساريًا كأنه يحلم حلم الليلة ، وانبسطت الرمال في ضوئه الفضيّ بيضاء كأنها نفس طاهرة عذراء

ورفعت بلقيسُ السترَ الحريريّ المسبل على باب خيمتها الملكية

الكلّ حولها نيام . لقد برّح بالركب طولُ المسير ووعثاء السفر الطويل . لكم قطعتُ رواحلها من سهوب وجابتُ من قفار مذ غادرتُ أرضَ اليمن . إنه لفضاء لا آخر له من الرمال القاحلة الحائلة اللون من صَخَد الشمس ، ما برح يطوى فيافيهِ مرحلةً بعد مرحلة هذا الموكبُ الحافلُ الزاهر ، أشبه ما يكون بموكب الأمل في حياة البشر .

وتطلّعتُ بلقيس على مدّ البصر . فاذا سوادّ جاثم . ذلك ولا ريب جبل صهيون . وكان الأدلاء قد أخبروا أنهم منه على مسيرة بعض يوم ،

فكان أن أمرت بلقيس بالنزول حتى يستريح الركب فإذا أصبحوا  
أصلحوا من شأنهم ودخلوا المدينة في أكل زينة

وانصرفت بلقيس لحظةً إلى أحلامها ، واستغرقت كما تستغرق في مثل  
سنّها الفتيات وإن كنّ ملكات

ثم عاودت النظر إلى ناحية صهيون في سُدفَةِ السحر . فبدأ الجبلُ  
متجهماً وعراً ، وظهرت على قنّته مدينة داود كالقلعة الحصينة عالية  
الأسوار ممتنعةً فسَهَمَتْ بلقيس ، وعرضتُ لذهنها وقتئذ صورة بلادها  
بأوديتها ومراعيها ، ومياها الجارية وبساتينها البهيجة ، مستقبلةً القادمَ  
إليها بطلعةٍ ناضرة وابتسامةٍ ساحرة . ولكن بلقيس لم تلبث أن انتبهت  
فجأةً ، وقد ترامت في الأفق أشعة الشمس البازغة ، فإذا المدينة ينعكس  
منها وهجٌ كالنضار يأخذ بالأبصار ، ولاحت من أعلى الجبل لعيني بلقيس  
الدهشة المأخوذة شرفاتُ المعبد العظيم الذي عمره ابن داود ووارث ملكه  
سليمان الحكيم .

ونادى المنادى في الركب ، فانتبه الجميع . ولم تمض لحظة حتى كان  
الموكب في طريقه مُصعداً إلى باب دمشق من أبواب المدينة

وكانت الأخبار قد أتت سليمان وشاعت في المدينة وما جاورها . فما كاد  
يرتفع النهار حتى هرع الناس يرقبون الموكب . وانتشرت الجند من المرتزة  
مصطفةً على مسافاتٍ متقاربة يحرسون الطريق من باب المدينة حتى قصر  
الملك . واشتدّ بالناس التعب وطال الانتظار في وقدة الشمس . وإذا



بهزة كالريح الزعزع تسرى في الجموع الحاشدة فتتدافع منا كبهم وتضطرب  
صفوفهم وقد اشرابت الأعناق وامتدت الأبصار . لقد أهلّ موكب  
الملكة الغربية القادمة وبدت طلائعه في أول الطريق

وكان يتقدم الموكب حرسها وهم فرسان ذوو بأس على خيلٍ عرابٍ  
سواحٍ يكبحون لُجْمَها وهي نَمْلَةٌ القوائم صاهلة

ثم انجالت الكتائب عن مطلع الملكة في أبرادها اليمانية الناعمة المفوّفة  
سبعة أبرادٍ بعضها فوق بعض ، متفاوتة الطول مختلفة الشيات والألوان ،  
فيها المزركش ، والموشى ، والمطرز بأصناف الزهر والريحان وأشكال  
الطواويس والغزلان ، والمنسوج بالذهب والملبس بصفائح الفضة ، وجميعها  
مرصّع بالآلئ وأنواع اليواقيت . وقد انعقد على رأسها الصغير إكليلُ الملك .  
وعلى صدرها القلائدُ ، وفي ساعديها الدمالج ، وأصابعها السبطة الخضوبة  
البنانِ مختمةٌ بفصوصٍ كبيرة من الحجارة الكريمة . وفي قدميها  
خفٌّ مرصع بالشذور والجُمان . وهي مستندة على سريرٍ من الذهب  
مفروشٍ بجلود الفهود والنمورة ، ومركبٌ أحكم تركيب على ظهر فيلٍ عظيم  
الجتة أبيض اللون يقوده رجلان من الفيالة الأحباش ، عملاقان عريضا  
الألواح مفتولا العضل عاريان حتى حقويهما ، يقابلان بسوادٍ جلدها بياضَ  
نابى الفيل فيبدو النابان العظيمان أشدَّ بياضاً وأروع ظهوراً . وكان الفيل  
يتهادى كالفخور المدلّ بما يحمل ، مطوّحاً رأسه في رفق يمنة ويسرة ،  
ورافعاً خرطومَه حيناً بعد حينٍ كأنما يحيي عن الملكة جموعَ المستقبلين



وقبل أن تستفيق الجموع المحتشدة على جانبي الطريق وفوق الجُدُر  
والسقوف من دهشتها ، وتكفّ عن التهليل والتلوّيح بسعف النخيل ،  
أقبلت قافلةُ الجمال مثقلةً بالأحمال من نفائس الهدايا والألطف ، ذهبٌ  
وطيبٌ وجواهر ثمينة في صناديق من الآبنوس مغاليقها من الفضة ، ثم  
النجائبُ عليها هودج الصائف والغلمان من حورٍ وولدان ، يليها  
العبيدُ والخصيان .

وفي أثناء ذلك كان سليمانُ بين شيوخ كهنته ووجوه دولته وقواد جنده  
وخاصةً بطانته في قاعة العرش الكبرى ينتظر الضيفة الكريمة القادمة من  
أقصى البلاد لتحيته .

وكان الجميع في أكمل أهبةٍ وأجمل بزّةٍ ، إظهاراً لعظمة المُلك وعزته  
حتى تغشى جلالته الأبصار وتعنوله الجباه وتمتلىء منه الصدور رهبةً .  
وكان سليمان في حلةٍ نسيجٍ وحدها من حلل فينيقية باهرةٍ فاخرةٍ من  
سندس أخضر ، منسوجةٍ بالذهب والفضة . وفي قدميه خفّان من أدم أحمر  
وهو متمنطقٌ بسيف مرصع ، وعلى رأسه الذى وخط المشيبُ مفارقةً تاجٍ  
من الذهب السبيك له سبعةُ أركانٍ على كل ركنٍ لؤلؤةٌ شديدة  
الوميض متألقة .

وأذن الموكلُ بالباب أنْ قَدِمَتِ الملكة . فإذا صفّان من الحجاب  
يتقدمون ، ولقضبائهم المذهبة الطويلة قرعٌ خفيفٌ على رخام الردهة . ثم  
يتنحّون على الجانبين . وتظهر بعد لحظةٍ على عتبة المجلس ، بلبقيسٍ في كل



مِئعة صباها وسجّر جمالها وحفل زينتها وروعة جلالها . وتمشى وبين يديها  
كبيرُ الحجاب إلى عرش سليمان .

وكان سليمان على سريرهِ ، جليل المظهر عظيم الشأن ، لا يبدو التأثرُ  
عليه ، وكأنه التمثال المعبود يقصده الحجاجُ من كل صوب لقضاء المناسك  
وتقديم الهدايا والقرابين .

وعندما اقتربت بلقيسُ من العرش انتحى كبير الحجاب جانباً ، فاذا  
هى أمام سرير عظيم من عاج مغشّى بذهب إبريز ، وله ظهرٌ استدار  
أعلاه وتكلل بأنواع الجواهر ، وله مسندان عريضان ليتكىء الجالسُ عليه .  
وإلى المسندين أسدان قائمان ، وكذلك على حفاف الدرجات الست أسودٌ  
من الجانبين ، وجميعها من الذهب مصورةً مجسمةً ، وقد اجتمع لها  
ما للأسود الشرى من الرهبة لما بلغته من صدق المحاكاة وإحكام الصنعة  
ورفعت بلقيس فى خشوعٍ عينيها إلى سليمان ، وحيته تحية الإعجاب  
والإجلال ، فقام سليمان بردّ تحيتها ، ورحّب بمقدمها وطيب نفسه وقرب  
إليه مجلسها .

وبعد تمام حفلة الاستقبال والفراغ من مراسمها ، وبعد أن استجمعت  
الملكة وأخذت حظّها من الراحة ، خرج بها سليمان حتى تنظر إلى بيت  
الرب الذى بناه ، وقد أخذت عينيها فى الطريق أصنافُ الزروع على أطراف  
الجبال ، ومراعى الكلاؤ وأعراش الكروم ، ودوح الأرز وأزهار الحقول .  
ثم دخلت البيت المقدس ، فراعها اتساعه وارتفاع سماكه . وتأمّلت



أرضه المفروشة بأخشاب السرو ، واستشرفت إلى طباقه المتراكبة طبقاً فوق طبق ، وتلفتت إلى حيطانه وسقوفه المغشاة بالذهب ، وتطلعت إلى زخارفه من ثمار وبراعم أزهار ، ونقوشه المنقورة على هيئة الأملاك منشورة الأجنحة وجميعها مغشاة بالذهب الخالص . وأرسلت طرفها إلى الساحة الداخلية حيث مذبح المحرقات ، وحيث الحوض النحاس المسمى بالبحر المسبوك ، قائماً على اثني عشر ثوراً مصورة مجسمة ، كل ثلاثة منها متوجهة شطر جهة من الجهات الأربع ، ولحت الهيكل حيث يحرق البخور في قدسه ، وحيث تابوت العهد مودع منه في قدس الأقداس . ولولا جذب سليمان لها لوقفت بلبقيس في كل موضع دهرأ ولهتكت من سر أقداسه سترأ فلما أن عادا جلس سليمان للمظالم ، وجعل يقضى فيها واحدة بعد الأخرى وبلقيس حاضرة . فلم تعرض له مشكلة إلا أوضحها ، ولا غامضة إلا جلاها ولا رمز إلا حله . فتحققت أن الله قد آتى سليمان حكمة وعلم . حتى إذا فرغ وهم بالقيام أتته امرأتان تختصمان إليه في وليد تدعى كل واحدة منهما أنه ولدها ، فقال سليمان لسيّافه : « اقطع الصبي نصفين ، وأعط لكل واحدة نصفه » . فقالت إحداها : « نعم ، حتى لا يكون لى ولا لها » . وقالت الأخرى : « ادفعه إليها ، أيها الملك ، ولا تقتله » . فبرح الخفاء وكشف سليمان أنه ابنها ، فدفعه إليها .

عندها لم تملك بلقيس نفسها ، وقامت بين يديه قائلة :  
« كان حقاً إذن ما ترمى إلى في بلدى عن عظيم قدرك وحكمتك .



لقد كنتُ لا أصدّقُ أذُنِي . حتى جئتُ فرأيتُ بعيني أنهم بكل ما رَوَوْا  
لم يبلغوا بعضَ ما أرى . فأنت أبلغُ حكمةً وأوفرُ نعمةً من كل ما جرى  
على لسانِ وسارتِ بذِكره رُكبان ، هنيئاً لقومك ، هنيئاً للواقفين دوماً  
بين يديك السامعين حكمتك » .



وأقبل المساء ودار الحديث بين سليمان وبلقيس فيما يعنيه ويعنيها من  
شئون الملك وتدير المعاملات ، وعن اتفاقاته التجارية مع فرعون مصر  
وملك صور ، وعن سفنه المنشآت الجوارى كالأعلام في بحر سُوْف\* وقوافله  
السيّارة في الصحراء حاملةً إليه تجارة الهند . .

وكانت بلقيس تُذاكره جميعَ ذلك وفي نفسها شيءٌ يشغلها . وأخيراً  
في فترة سكوتٍ قالت وهي لا ترفع إليه بصرها ، والحياء يكاد يعقد لسانها :  
— هل لى أن أعرف من شولميت التى ذكرتها ؟

— من ؟

— شولميت

— ما أذكر أننى قلتُ شيئاً كهذا فى حديثنا .

فارتج على بلقيس ، ثم غالبت حياءها وقالت فى صوت خافت :

— نشيد الانشاد . . « ارجعى ارجعى يا شولميت »

— نشيد الانشاد . .

— « من المقبلَةُ كطلعة الصبح ، الوضّاحة كصفحة القمر ، الطاهرة

كنور الشمس ولكنها كالجيش المنشورة أعلامه »

\* البحر الأحمر .

— أجل ..

— « ما أجملك يا حبيبتي ، ما أجملك . عيناك حمامتان من وراء نقابك .

شعرك كقطيع الغنم المتدافعة على سفح جبل جلعاد ، ثناياك كالنجاج  
المجزوزة البيضاء الصادرة عن عين الماء ، شفقتك سلك من القرمز ،  
وفك طيب ، وخذك فلقة رمان . كل ما فيك جميل يا حبيبتي ... »

— « مبرأة من كل عيب »

— وأحسبها كانت سمراء ، مثلنا أهل اليمن ، لقد جرت هذه الصفة

على لسانها في النشيد

— ماذا ؟

— « أنا سمراء ولكن جميلة ، كخيام قيدار وقباب سليمان ... »

وأما حبيبها فتتغنى به « حبيبي أبيض اللون مشرب بحمرة ، يتميز  
من بين الألوف . رأسه ذهب إبريز ، وطُورُ جبينه هفافة مسترسلة .  
حبيبي نزل إلى روضته ، إلى خثائل الطيب ، ليرعى في الرياض غنمه

ويقطف السوسن ، أنا لحبيبي ، وحبيبي لى . إنه يرعى غنمه بين السوسن »

— ذلك الراعى ! .. سقياً للشباب ! وأنى لك علم هذا النشيد ؟

— كانت مربيتي وقد جىء بها من أرض كنعان تغنّيني من هذه

الأنشيد حتى أرقد ، فلما كبرت أخبرتنى خبرها وسمت لى صاحبها .

وها أنذا جئتك ، وكنت لا أفكر إلا فيها طول طريق إليك

— إني رهين لك بما أستطيع



— مَنْ شولميت ؟

— .....

— يا شاعري الكريم ، صاحب النشيد الخالد أبد الأبدین ، كلمة منك واحدة : مَنْ تكون شولميت

— لك كلُّ ما شئتِ إلا سرَّ النشيد

ودعا سليمان بلقيس إلى قصره الفسيح الفاخر ، حيث مُدَّت الموائدُ محمَّلةً من لحوم الخراف والعجول المسمنة والأياثل والظباء والأوزِّ وأصناف الحمَّصات والثمار . وكانت صحَّافُ الأكل وآنيةُ الشرب كلها من ذهب . وقد كان في استقبال سليمان نساء حريمه إلا زوجته بنت فرعون مصر ، فهي مستقلةٌ بقصرها القائم بإزاء قصره يسعى إليها حين يريد . وكان الحريم خليطاً من السراى ، فيهن المؤايَّات والعمونيات والأدوميات والصيّدونيات والحثيَّات وغيرهن ، وكلهن متطلعٌ إلى الملكة الشابة شديد الرغبة في مقاربتها ، لولا ما يزيِّنهما من سَمَت الملك ولولا هيبة سليمان . ولكن بلقيس كانت طوال الوليمة شاردة الفكر ساجدة الخيال — وقد استولت على نفسها وحشةٌ ، وأحست بحاجة إلى الوحدة . وكان يزيد إحساسها بالوحشة والحاجة إلى الوحدة وهي في حضرة الملك الحكيم مشهدٌ هذا العدد العظيم من نسائه .

\*\*\*

وبقيت بلقيسُ في أورشليم ريثما استراحت وتزود الركب . وفي ذات يومٍ قبل أن يرتفع النهار ، وأهلُ المدينة ما يزالون في نومهم غارقين ،

كان موكبٌ عظيمٌ على باب صهيون يجتاز أعتابه مفارقاً مدينة داود ،  
والحراس ينظرون في دهشةٍ لهذا الرحيل الباكر .

وما ارتفع النهار حتى كان ركبٌ بلقيس بعيداً عن أسوار المدينة العظيمة  
الرابضة العابسة كالقلعة الحصينة . ونظرت بلقيس خلفها نظرةً المفارق  
بلا عودة ، فإذا شعاعٌ من أعلى الجبل منعكسٌ من شرفات المعبد المذهبة  
يمتدُّ إليها ، ماضٍ في إثرها كأنه أثرُ الماضي ولمحُ الذكرى .





## فهرس

| صفحة |                                | مقدمة          |
|------|--------------------------------|----------------|
| ٣    |                                | لونان من الحب  |
| ٧    | للروائي الأسباني بلاسكو أبانيز | نزوة هوى       |
| ١٩   | » الروسي الكسندر كوبرين        | مبارزة         |
| ٣١   | » » نيقولاى ليسكوف             | حبیبها         |
| ٣٩   | » » مكسيم جوركى                | القبلة         |
| ٤٩   | » » أنطون تشيكوف               | الصمت          |
| ٦٧   | » » ليونيد أندرييف             | العضاض         |
| ٩١   | » » » »                        | القصر المهجور  |
| ١٠٥  | » الفرنسي أونوريه دى بلزاك     | أرملة          |
| ١١٥  | » » جى دى موباسان              | فى ضوء القمر   |
| ١٢٥  | » » » »                        | الجواهر        |
| ١٣٥  | » » » »                        | بلقيس ملكة سبأ |
| ١٤٧  | بقلم عبد الرحمن صدقي           |                |

1944/2/1/1192













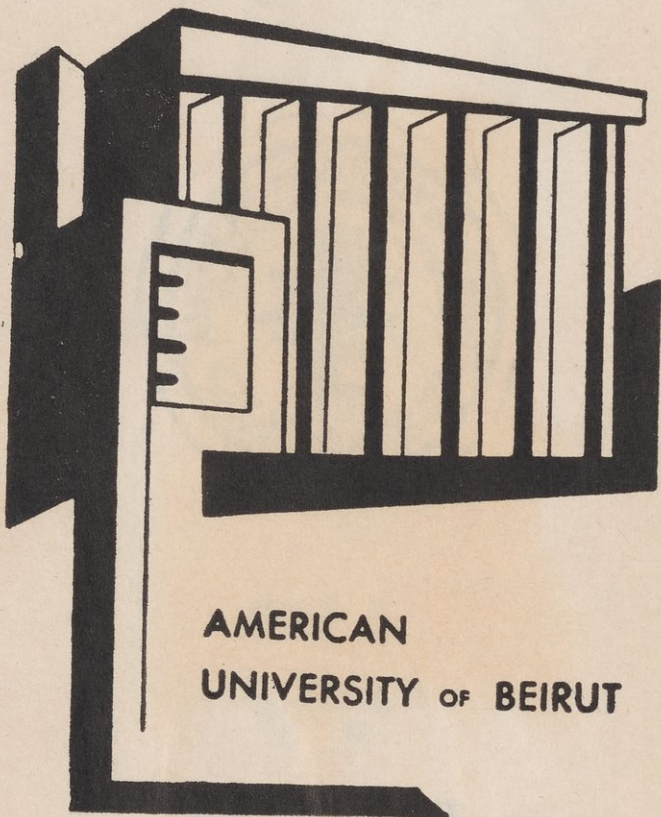


5494A:c.2  
صدقى، عبد الرحمن

النوان من الحب  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030537



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT



